صورة اللغة العربية في العصر الجاهلي ومصادر دراستها

عمر رشيد شاكر
مدرس مساعد
جامعة تكريت – كلية التربية
قسم علوم القرآن الكريم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه:

ينبع هذا البحث من فكرة أن العربية الفصحى المشتركة لغة لم يكتب تاريخها بصورة علمية وشاملة حتى الآن، وأن تضافر الجهود العلمية وعملها في سبيل رسم صورة هذه العربية وكتابة تاريخ تكونها صار ضرورة علمية ومطلباً مهماً من مطالب البحث اللغوي التأريخي.

وإذا كانت هذه الدراسة تنبع من هذه الفكرة فإنَّ الأسئلة التي تطرحها هذه الدراسة وتحاول الإجابة عليها هي : ما طبيعة (العربية) في العصر الجاهلي ؟ وكيف كانت صورتها؟ هل ساد في ذلك العصر عربية مشتركة موحدة عاشت إلى جانبها مجموعة من لهجات الخطاب المحلية أم أنَّ الحياة العربية لم تشهدْ في ذلك العصر وجود هذا المستوى اللغوي الموحد المشترك بل كانت تنتشر مجموعة من اللهجات القبلية المختلفة فيما بينها قليلاً أو كثيراً، وتمتلك نسبة غير قليلة من الظواهر اللغوية المشتركة ؟

والقضية الأكثر أهمية التي يعنى بدراستها هذا البحث هو هل نمتلك مصادر علميةً دقيقةً تستطيع رسم صورة هذه العربية وتتحدث عن طبيعتها في ذلك العصر الجاهلي ؟ وأحسب أن الإجابة على مثل هذا التساؤل يستأهل البحث والعناء .

وأريد أن أنبه على أن هذه الدراسة التي تعنى بمحاولة تعرف مصادر دراسة العربية في العصر الجاهلي لن تحاول البحث في مسألة تاريخ ظهور هذه اللغة ونموها وتطورها وهو ما قد يتبادر إلى ذهن القارئ حين يقرأ عبارة ((العصر الجاهلي)) فهذا أمر لا سبيل للوصول إليه في الدراسات اللغوية التاريخية ولا سبيل للحصول من أجله على حقائق قطعية

أو شبه قطعية، بل إن هذه الدراسة تبحث في تاريخ العربية قبل ظهور الإسلام بقرون قليلة وتلك مدة شهدت نضج هذه اللغة واكتمال بنائها ودقة أساليبها المختلفة والمتنوعة .

وسيشعر القارئ حين ينظر في هذه الدراسة الموجزة عن تاريخ العربية أن قسماً من موضوعاتها وأبحاثها قد أشير إليه وبحثه الدارسون في مؤلفاتهم الخاصة في تاريخ العربية وفقهها وهذا حق لا أنكره ولا أنفيه، ولكني شعرت حين بدأت في قراءة هذا الموضوع في المصادر المختلفة أن خيوطه متناثرة والإشارات إليه متفرقة في هذه المصادر فأردت جمعها وإعادة ترتيبها في دراسة تختص بمحاولة الكشف عن تاريخ العربية في العصر الجاهلي .

وتقوم هذه الدراسة على أساس عرض ثلاث قضايا شكلت مباحثها، وهي :

١ – المبحث الأول : طبيعة العربية في العصر الجاهلي :

وفيه استنطقت عدداً من دراسات القدماء والمحدثين في سبيل معرفة واقع ((العربية)) في عصر ما قبل الإسلام، وأحس أن هذه البداية ضرورية لمعرفة كيفية التعامل مع ما يمكن أن يكون بحق مصادر لهذه العربية في العصر الجاهلي .

٢ – المبحث الثاني : النقوش العربية القديمة :

وعرضت في هذا المبحث للفكرة القائلة بأن النقوش القديمة التي عثر عليها في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية تعد أقدم (مصادر) دراسة العربية الجاهلية، عرضت هذه النقوش وناقشت مدى صلاحيتها لأن تكون مصدراً لهذه العربية .

٣ – المبحث الثالث : (الشعر) و (العربية) في العصر الجاهلي :

وقد ناقشت في هذا المبحث قضية (الشعر الجاهلي) وعلاقته باللهجات العربية المختلفة، ورؤية القدماء لهذه العلاقة، ومن بعدهم المحدثون، ثم خلصت بعد ذلك لتقرير صلاحية أو عدم صلاحية أن يكون هذا (الشعر الجاهلي) مصدراً لدراسة العربية الجاهلية .

والحقيقة أن هذين المصدرين (النقوش القديمة) و (الشعر الجاهلي) هما أكثر ما يشار إليه في دراسات المحدثين ويقع تحت الدراسة والبحث والتمحيص حين يشرع هؤلاء المحدثون بالحديث عن مصادر العربية في العصر الجاهلي .

وأرجو أن أكون قد قدمت خلال هذه الدراسة ما يساعد على إماطة اللثام عن تاريخ هذه اللغة في عصر من عصورها القديمة .

والحمد لله أولاً وآخراً

المبحث الأوّل

صورةُ العربية في العصر الجاهلي

من أجل أن نبحث في مصادر دراسة العربية في العصر الجاهلي لا بد أن ننظر أولاً في صورة هذه العربية الجاهلية وواقعها وطبيعتها حتى يكون البحث في هذه المصادر أكثر منهجية وعلمية .

ولا بد أن يترك التعرف على طبيعة هذه العربية في العصر الجاهلي أثراً في طريقة تعامل الباحث مع المصادر التي يراها قادرة على أن تكون ممثلة تمثيلاً حقيقياً للعربية الجاهلية .

وطبيعة المنهج تقتضي أن نبحث في بادئ الأمر في تراث القدماء لعلنا نجد فيه تفكيراً تاريخياً سليماً يخص العربية أبان ذلك العصر .

المطلب الأول

العربية في العصر الجاهلي كما يصورها تفكير القدماء

لا بد من الاعتراف في بادئ الأمر أنه من الصعوبة العثور على نصوص قاطعة في أبحاث القدماء تتحدث عن صورة العربية في العصر الجاهلي على نحو تجعلنا نذهب إلى أنّ تصور القدماء لهذه العربية كان على هذا النحو دون غيره، ولعل ما يفسر ذلك أن جمهور العلماء السابقين قد شغلوا بتقعيد الظواهر اللغوية وتحليلها عن النظر في تاريخ العربية في العصور المتعاقبة .

ويبدو أن ليس أمام الباحث عن تاريخ عربية العصر الجاهلي – إن رام البحث عن هذا التاريخ في كتب القدماء – سوى استنباط الحقائق واستنتاجها من نصوص القدماء التي تتحدث عن جملة من القضايا اللغوية والحقائق التأريخية التي تخص العربية وقواعدها.

وأجد أنّ دراسة الحياة اللغوية العربية في العصر الجاهلي عند القدماء يمكن أن تتمّ من خلال محورين أساسيين :

أولهما : عرض مجموعة من النصوص القديمة التي تعالج بعضاً من مسائل التقعيد في العربية، أو التي تصف طبيعة العربية إبان نزول القرآن الكريم والتي قد ننجح من خلالها في رسم ملامح صورة العربية في العصر الجاهلي.

وأول النصوص التي وقعت بين أيدينا التي يمكن أن نستنتج منها بعض الحقائق المهمة هو ما جاء في قول سيبويه (ت ١٨٠ هـ) حين تحدث عن اختلاف العرب في إمالة بعض

الأصوات : ((واعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه، فينصب بعض ما يميل صاحبه، ويميل بعض ما ينصب صاحبه، وكذلك من كان النصب من لغته ولا يوافق غيره ممن ينصب، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين في الكسر، فاذا رأيت عربياً كذلك فلا ترينه خلط في لغته ولكن هذا من أمرهم))[١] .

وأسلوب سيبويه في دراسة إمالة الألفات هذه توحي بأن العرب لم يكونوا في عهده قد كونوا مستوى لغوياً موحداً يختار أحد الوجهين (الإمالة أو عدمها)[٢].

والحق أن من يتتبعْ منهج سيبويه في تقعيد الظواهر اللغوية المختلفة يكتشف غياب الإشارة إلى المستوى اللغوي الموحد الذي يجتمع العرب على استعماله في الشعر والخطابة ولغة الثقافة، مما يعني عدم وجوده في عصر سيبويه وانه لم يتكون بعد، وأن عصر سيبويه كان عصراً قد تعددت فيه مستويات الأداء اللغوية.

وهذا الأسلوب في التقعيد قد انتقل إلى النحويين واللغويين الذين جاءوا بعد سيبويه، فقد قال أبو الطيب اللغوي (ت ٣٥١ هـ) متحدّثاً عن اختلاف العرب في استعمال ظاهرة " الإبدال " : ((وإنما هي لغات مختلفة لمعانٍ متفقة : تتقارب اللفظتان في لغتين لمعنىً واحد حتى لا تختلفا إلا في حرف واحد، والدليل على ذلك أن قبيلة واحدةً لا تتكلم بكلمةٍ طوراً مهموزةً وطوراً غير مهموزةٍ . ولا بالصاد مرة وبالسين أخرى ، وكذلك إبدال لام التعريف ميماً ، والهمزة المصدرة عيناً كقولهم في نحو " أن " : عن ، لا تشترك العرب في شيءٍ من ذلك وإنما يقول هذا قومٌ وذاك آخرون))[٣] .

وقول أبي الطيب ((لا تشترك العرب في شيء من ذلك)) ذو دلالة مهمة هنا إذ فيه نفيٌ صريح لاشتراك العرب في استعمال هذه الظاهرة اللغوية ، وهذا فيه إشارة شبه واضحةٍ إلى نفي وجود المستوى اللغوي المشترك عند العرب إبان عصور النحاة واللغويين المتقدمين.

وحديث أبي الطيب هنا لم يخصصه بزمنٍ فليس من البعد أو التكلف القول بأن نفي وجود المستوى اللغوي المشترك كان في العصر الجاهلي أيضاً .

ومما يشهد لصحة ذلك عندي ويدلُّ على أنَّ العربية الجاهلية – كما توحي به بعض نصوص القدماء – كانت ذات طبيعة متنوعة في مستويات أدائها اللغوية وأنها لم تشهد ظهور عربية موحدة مشتركة هو ما جاء في قول الأمام مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧ هـ) : ((وكانت لغات من أنزل عليهم القرآن مختلفة ، ولسان كل صاحب لغة لا يقدر على رده إلى لغة أخرى إلا بعد تكلف ومؤونة شديدة، فيسر الله عليهم أن أنزل كتابة على سبع لغاتٍ

متفرقات في القرآن بمعانٍ متفقةٍ ومختلفة ليقرأ كل قومٍ على لغتهم، على ما يسهل عليهم من لغة غيرهم وعلى ما جرت به عادتهم، فقوم جرت عادتهم بالهمز، وقوم بالتخفيف، وقوم بالفتح، وقوم بالإمالة وكذلك الإعراب واختلافه في لغاتهم، والحركات واختلافها في لغاتهم وغير ذلك، فتفصح كل قوم وقرءوا على طبعهم ولغتهم ولغة من قرب منهم، وكان في ذلك رفق عظيم بهم، وتيسير كثير لهم))[٤] .

وفي هذا النص دلالة قاطعة على أنَّ عصر نزول القرآن – وهو عصر ملاصق للعصر الجاهلي – كان يشهد تنوعاً واختلافاً في لهجات العرب، وأن هذه اللهجات لم يكن يسودها مستوى لغوي أكثر رقياً منها، بل إن اختلاف لهجات العرب أو تنوع مستويات الأداء اللغوية كان ابرز ما يرسم صورة العربية في العصر الجاهلي وإبان نزول القرآن الكريم .

وقد أخذ بهذه الفكرة الدقيقة الرصينة الإمام ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) حين قال : ((وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لغاتهم مختلفة، وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها أو من حرف إلى آخر بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج لاسيما الشيخ والمرأة ومن لم يقرأ كتاباً))[٥] .

ولقد رأينا أنَّ أبرز الحقائق التي نستنتجها من النصوص السابقة توحي بأنَّ العصر الجاهلي غابت فيه هيمنة المستوى اللغوي المشترك الموحد، وأنَّ أمر الحياة اللغوية فيه كانت موكولة إلى لهجات الخطاب المحلية المتعددة .

وثانيهما : هو ما يمكن أن يقدِّمه البحث في قضية ((الفصاحة)) من نتائج تنفع في معرفة كيفية تصور القدماء لعربية العصر الجاهلي .

ومن يبحث في نصوص العلماء السابقين يكتشف أنَّ ثمة علاقة جامعة بين (الفصاحة) و (لهجة أهل الحجاز أو قريش) فقد كانت لهجة هذه القبيلة هي أكثر اللهجات العربية التي وصفت بالفصاحة والجودة، وإن كانت غيرها من اللهجات قد نالت حظاً من هذه (الفصاحة) كما بيَّنت نصوص هؤلاء القدماء .

والنصوص التي تعطينا فكرةً عن طبيعة دراسة القدماء لهذا الموضوع كثيرة، من ذلك:

– ما جاء في قول سيبويه حين وصف لهجة أهل الحجاز بأنها : ((اللغة العربية القديمة الجيدة)) [٦].

- وقال يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ) : ((كانت العرب تحضر الموسم في كل عام، وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به، فصاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات، ومستقبح الألفاظ)) [٧].
- ونجد المبرد (ت ٢٨٥ هـ) ينص على جعل لغة قريش معياراً للفصاحة اللغوية حين تتم الموازنة بين لهجات القبائل إذ يقول : ((وكل عربي لم تتغير لغته فصيح على مذهب قومه إنما يقال : بنو فلان أفصح من بني فلان أي : أشبه لغة بلغة القرآن ولغة قريش)) [٨].
- ويقول أبو العباس احمد بن يحيى ثعلب (ت ٢٩١ هـ) : ((ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم وكشكشة ربيعة وكسكسة هوازن وتضجع قيس وعجرفية ضبّة)) [٩] .
- ويقول أبو نصر الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) ((كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانةً عمَّا في النفس))[١٠] .
- ويروي ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) عن أحد العلماء قوله : ((أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغةً، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب، واصطفاهم ، واختار منهم نبي الرحمة محمداً ﷺ فجعل قريشاً قُطّانَ حرمه، وجيرانَ بيته الحرام، وولاته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم ... وكانت قريش– مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها – إذا أتتهم الوفود من العرب، تخيروا من كلامهم واشعارهم احسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب)) [١١].
- ولا يبعد ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) عن هذا المنهج في تصوير موقع لهجة قريش من الفصاحة في العصر الجاهلي، ولكنه يضيف لهجات أخرى ويسمها بالفصاحة أيضاً إذ يقول : ((كانت قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من أكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم وعلى نسبة

بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحةِ والفساد عند أهل الصناعة العربية))[١٢].

وبعد هذا كله نستطيع أن نوجز ابرز ملاحم تصور القدماء عن (العربية) في العصر الجاهلي على النحو الأتي :

١- وجدنا من خلال أسلوب النحاة واللغويين في تقعيد الظواهر اللغوية أن نصوص القدماء تدفع الباحث نحو الاعتقاد بعدم وجود لغة عربية مشتركة حين شرعوا بتقعيد تلك الظواهر، وهذا يعني عدم وجودها في العصور التي سبقتهم – ومنها العصر الجاهلي – ونفي وجود هذه اللغة في هذه العصور هو الذي سبب اختفاء الإشارة إليها في كتب اللغويين المتقدمين .

٢- وتقرير الحقيقة السابقة يؤدي إلى تأكيد الحقيقة الآتية : وهي أن أبحاث القدماء تمكن القول بأن العصر الجاهلي كان عصراً متنوع اللهجات، مختلفاً في مستويات الأداء اللغوية، وهذا يعني أن كل قبيلة تستقل بلهجة قد تبعد قليلاً أو كثيراً عن لهجات القبائل الأخرى، وهذه الحقيقة يشير إليها نص الإمام مكي السابق حين قال : ((وكانت لغات من انزل عليهم القرآن مختلفةً)) .

٣- نصوص القدماء تكشف لنا اهتمامهم ببحث قضية (الفصاحة) وأنهم نسبوها إلى مجموعةٍ من القبائل وأولها : قريش، ولكن طريقة القدماء في دراسة هذه القضية لا توحي بان لهجة هذه القبيلة تفوقت على غيرها، أو سادت منطقة الجزيرة العربية ، أو أنها أصبحت لغة الشعر والخطابة والأدب في العصر الجاهلي – كما رأى بعض الدارسين المحدثين[١٣] – بل هي لهجة فصيحة راقية في حدود استعمالها وهي منطقة الحجاز.

المطلب الثاني

العربية في العصر الجاهلي كما يصورها تفكير المحدثين

لقد رأينا في المطلب السابق صعوبة العثور على نصوص في دراسات القدماء تتحدث بصورة واضحة وقاطعة عن طبيعة العربية في العصر الجاهلي وأن أمر الدراسة كان قائماً على أساس الاستنتاج والاستنباط من نصوص العلماء السابقين ، ولكن بحث هذه القضية (صورة العربية الجاهلية) في تراث المحدثين أمر ممكن ومتيسر، ذلك أن للمحدثين دراساتٍ وأبحاثاً مفصلة تبحث في هذه القضية وتضيء شيئاً كثيراً من جوانبها .

PDF-XChange Viewer Click to buy NOW! www.docu-track.com

وقد اشترك في دراسة هذا الموضوع عدد غير قليل من الباحثين في تاريخ العربية وفقهها من المستشرقين والعرب، وقد تنوعت آراؤهم وتشعبت أفكارهم حول طبيعة " اللغة العربية " في عصر ما قبل الإسلام، وأبرز تلك الآراء هي التي نستطيع عرضها على وفق المنهج الآتي :

الاتجاه الأول : سيادة اللغة العربية الموحدة قبل الإسلام :

ذهب لفيف من المستشرقين والباحثين العرب إلى أن ثمّة لغة عربية مشتركة سادت في عصر ما قبل الإسلام وكانت هذه اللغة هي لغة الشعر والخطابة والثقافة، وهي التي لم تكن لغة سليقة لكل العرب، ولم يتقنها إلا علْية القوم، وقد كانت لهذه اللغة صفات وسمات تميزها عن غيرها من لهجات الخطاب .

ومن هؤلاء : المستشرق الألماني تيودور نولدكة القائل : ((وقد سيطرت في الجزيرة العربية نفسها، في القرن السادس الميلادي تلك اللغة التي يسميها المرء " اللغة العربية " إلى حد بعيد جداً، لأنها أهم لغة تكلم بها العرب مطلقاً، فالشعر الذي ازدهر حينذاك في كل وسط الجزيرة العربية وشمالها، حتى أسفل الفرات، وما وراء ذلك، هذا الشعر يستعمل لغة موحدة))(١٤).

ويرى المستشرق كارل بروكلمان أن هذه اللغة لم تكن جارية في الاستعمال اليومي بل كانت لغة فوق لهجات الخطاب، ويقول : ((ولا شك في أن لغة الشعر القديم هذه لا يمكن أن يكون الرواة والأدباء اخترعوها على أساس كثرة من اللهجات الدارجة، ولكن هذه اللغة لم تكد تكون لغة جارية في الاستعمال العام، بل كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات وإن غذتها جميع اللهجات))(١٥) .

وذهب عدد من الدارسين العرب هذا المذهب، ومنهم الدكتور إبراهيم أنيس القائل : ((فالوحدة اللغوية بدأت قبل ظهور الإسلام بل نمت وازدهرت وعرف كثير من العرب من قبائل مختلفة بفصاحة القولِ وإجادة الشعر ولأن إتقان تلك اللغة الأدبية كان موضع فخر بين رؤساء القبائل والخاصة من الناس، يحاولون إتقانها والتفنن في نواحي القول بها)) (١٦).

وهو يرى أن ثمّةَ ظروفاً سياسية واجتماعية ودينية هيّأت لمكة أن تكون البيئة الصالحة المناسبة لتكوين العربية الموحدة المشتركة فيها قبل الإسلام، ولهذا كانت اللهجة المكية من أكثر اللهجات تأثيراً في هذه العربية المشتركة (١٧) .

PDF-XChange Viewer Click to buy NOW! www.docu-track.com

ويؤيد الدكتور عبد الرحمن أيوب هذا الاتجاه حين يقول : ((وكان في الجزيرة العربية كما أشرنا لهجات محلية يتكلم بها سواد العامة من الناس، ولغة فصحى لا يتقنها إلا الخاصة منهم، ولما نزل القرآن كان الحفاظ المتقفون يحسنون تلاوته لمعرفتهم بالفصحى))(١٨) .

وحين وضع الدكتور هاشم الطعان تصوراً عن الأدب الجاهلي أبان عن موقفه ورأيه من هذه العربية الموحدة حين قال : ((وحين يشيع شعر الشاعر ويصبح مشهوراً ويجد نفسه أهلاً لإنشاد شعره خارج نطاق قبيلته، في المواسم والأسواق حيث كانت تضرب القبب للمحكمين كان الشاعر يسمو بلغته عن الصفات اللهجية الضيقة ويحاول أن ينظم بدءاً باللغة الأدبية التي كانت مستمرة في التوسع والغنى على حساب اللهجات نفسها))(١٩).

ولا بد من الإشارة إلى أن هذا المذهب القائل بتكون العربية المشتركة في العصر الجاهلي، وأن هذا العصر شهد ظهور هذا المستوى الأدبي اللغوي الموحد هو ما يميل إليه أكثر الباحثين من الدارسين العرب وأشهرهم ومن هؤلاء – فضلاً عن الذين نقلنا نصوصهم – الأساتذة : أحمد الجندي (٢٠) وعبده الراجحي(٢١) ومحمود فهمي حجازي (٢٢)، ورمضان عبد التواب (٢٣)، وتمام حسان (٢٤)، وعبد الصبور شاهين(٢٥)، وغالب فاضل المطلبي (٢٦)، وأحمد نصيف الجنابي(٢٧)، وكاصد الزيدي (٢٨)، وعبد الغفار حامد هلال (٢٩) .

الاتجاه الثاني : سيادة لهجة قريش قبل الإسلام :

والاتجاه الثاني الذي برز في دراسات المحدثين هو القول بأن لهجة قريش حققت سيادة قبل الإسلام، وصارت بسببها أبرز اللهجات العربية القائمة آنذاك، ولكنهم اختلفوا في مقدار هذه السيادة التي حققتها لهجة قريش أكانت واسعة أم محدودة .

ومن ابرز هؤلاء الدارسين الدكتور طه حسين الذي رأى أن لهجة قريش حققت سيادة قبيل الإسلام، وأنّ تلك السيادة لم تكن تتجاوز حدود منطقة الحجاز، قال : ((فالمسألة إذاً هي أن نعلم أسادت لغة قريش ولهجتها في البلاد العربية وأخضعت العرب لسلطانها في الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده ؟ أما نحن فنتوسط ونقول : إنها سادت قبيل الإسلام حين عظم شأن قريش وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية، ولكن سيادة لغة قريش قبيل الإسلام لم تكن شيئاً يذكر ولم

تكد تتجاوز الحجاز فلما جاء الإسلام عمَّت هذه السيادة وسار سلطان اللغة واللهجة مع السلطان الديني والسياسي جنباً لجنب))(٣٠).

ويرى الدكتور شوقي ضيف كذلك أنّ لهجة قريش سادت في العصر الجاهلي وأن تلك السيادة شملت مساحة واسعةً من الأرض العربية يقول : ((وإذن فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا إنّ لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب بل في كل القبائل العربية شمالاً وجنوباً وغرباً وشرقاً، وفي اليمامة والبحرين وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصةً في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزدِ وخثعم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران))(٣١) .

الاتجاه الثالث : اختلاف اللهجات العربية وغياب اللغة الموحدة في العصر الجاهلي :

اتجه بعض الدارسين في العصر الحديث نحو تقرير حقيقة أنّ العصر الجاهلي شهد تنوعاً في مستويات الأداء اللغوي، واختلافاً في اللهجات العربية، وأنّ كلّ قبيلة كانت تستقل بلهجة تختلف عما هي عليه لهجة القبيلةِ الأخرى، ورأوا أنّ هذا العصر لم يشهد ظهور اللغةِ الأدبية الموحدة .

يقول الدكتور طه حسين : ((فالرواة مجمعون على أنّ قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام فيقارب بين اللغات المختلفة ويزيل كثيراً من تباين اللهجات، وكان من المعقول أن تختلف لغات العرب العدنانية وتتباين لهجاتهم قبل ظهور الإسلام ولا سيما إذا صحَّت النظرية التي أشرنا إليها آنفاً وهي نظرية العزلة العربية، وثبت أن العرب كانوا متقاطعين متنابذين وأنه لم يكن بينهم أسباب المواصلات المادية والمعنوية ما يمكن من توحيد اللهجات، فإذا صحَّ هذا كله كان من المعقولِ جداً أن تكون لكل قبيلة من هذه القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها في الكلام))(٣٢) .

ولا يعد رأي الدكتور طه حسين هذا متناقضاً مع رأيه السابق الذي صرح فيه بسيادة لهجة قريش قبل الإسلام، بسبب أن تلك السيادة رآها لا تتجاوز حدود منطقة الحجاز، وهذا السيادة لا تنفي اختلاف لغات العرب في المناطق الأخرى

وقد أنكر مصطفى صادق الرافعي أن يكون للعرب في جاهليتهم لغة أدبية موحدة وهو القائل : ((على أن هذه (اللغة الأدبية) وهم سخيف من أوهام المستشرقين ... فإن اللغة الأدبية لا تنشأ ولن تستقم إلا إذا كانت مكتوبة متدارسة، إذ الكتابة قيد من التغيير والتبديل، وهي نص في عموم الاحتذاء والمحاكاة، لأنها في مكانٍ ما هي في كلِّ مكانٍ غيره))(٣٣).

ويقول الدكتور غانم قدوري حمد في نتائج أحد أبحاثه : ((لم تكن هناك لغة أدبية مشتركة تنتظم كل أنحاء الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكان الناس يتكلمون بلغاتهم القريبة التي نشأوا عليها، ويحققون التواصل بينهم بالقدر اللغوي المشترك بين تلك اللغات وهو غير قليل))(٣٤).

ويقول أيضاً في كتابه القيم (محاضرات في علوم القرآن) : ((كان العرب في جزيرتهم قبائل وجماعات، تفصل بين قبيلة وأخرى فواصل طبيعية أو عوامل نفسية، فالجزيرة بطبيعة أرضها ومناخها تفرض على الناس نوعاً من العزلة والتنقل المستمر وراء مساقط المياه ومنابت الكلأ، ولم يكن هناك سلطان سياسي يشمل تلك القبائل والجماعات، بل إن المنازعات كثيراً ما كانت تزيدها تشتتاً وعزلة، ومن ثم فإن عوامل الافتراق كانت أكثر فاعلية في المجتمع العربي قبل الإسلام من عوامل التقارب والتوحد، وقد انعكس ذلك على الوضع اللغوي الذي كان يتميز بتعدد اللهجات وتباين صور النطق للعربية، لاسيما في وقت كانت تسود فيه الأمية، ويصعب التنقل والامتزاج، ما عدا فرصاً محدودة يلتقي فيها أفراد معدودون في مواسم الحج والتجارة لأيام معدودة، ثم يمضي كل واحد منهم لينخرط في حياة قبيلته أو بلدته))(٣٥).

وأجد أنَّ هذا الاتجاه في رسم صورة العربية في العصر الجاهلي أرجح من غيره، وتقوم على الشهادة بصحته ورجحانه أدلة أراها قوية وسليمة يُقِرُّها التفكير العلمي السليم، وأرجح تلك الأدلة هي :

١- بعض النصوص القديمة التي أشارت إشارة واضحة إلى أنَّ لهجات الذين نزل عليهم القرآن الكريم كانت مختلفة متباينة، ولاسيما ما جاء في قول الإمام مكي بن أبي طالب القيسي : ((وكانت لغات من أنزل عليهم القرآن مختلفة))(٣٦).

ونحن نعلم أنَّ من خصائص اللغة الأدبية الموحدة أنَّها لغة فوق مستوى لهجات الخطاب العامة، وأنَّها السمة المشتركة التي يجتمع عليها أصحاب اللهجات المتباينة ويتحدثون بها حين يجتمعون ويرغبون في تحقيق التواصل بينهم باستعمال أداة لغوية تحقق التفاهم والترابط، لكن الذي نجده أنَّ بعض العلماء السابقين كان يصرِّح بأنَّ العربيَّ حين يجتمع بغيره كان يلاحظ ويراعي لغة من يخالط وليس لغة أدبية موحدة كما كان مفترضاً لو كانت هذه اللغة الموحدة موجودة في العصر الجاهلي وعصور اللغويين المبكرة، وللدلالة على مجمل هذه القضية يقول أبو الفتح بن جنِّي (ت ٣٩٢هـ) : ((فقد علمت بهذا أنَّ صاحب لغة قد يراعي لغة غيره، وذلك لأنَّ العرب وإن كانوا كثيراً منتشرين، وخلقاً عظيماً في أرض الله غيرَ

متحجرين ولا متضاغطين فإنهم بتجاورهم وتلاقيهم وتزاورهم يجرون مجرى الجماعة في دار واحدة، فبعضهم يلاحظ صاحبه ويراعي أمر لغته، كما يراعي ذلك في مُهِمِّ أمره))(٣٧).

٢- يدلُّ منهجُ النحويين واللغويين المتقدمين على أنَّ اللغة الموحدة لم تكن موجودة في العصر الذي ظهرت فيه أوائل الدراسات النحوية واللغوية وهو القرن الثاني للهجرة، إذ هو القرن الذي ظهرت فيه أولُ وأهمُ دراسة لغوية عربية حتَّى الآن وأعني كتاب سيبويه، ومن يتتبع منهج سيبويه في تقعيد الظواهر اللغوية المختلفة : النحوية والصرفية والصوتية يكتشف أنَّ هذا المنهج كان قائماً على أساس المقابلة بين اللهجات العربية المختلفة أو الاستعمالات العربية المتنوعة للظاهرة اللغوية الواحدة، والأوجه المختلفة لهذه الاستعمالات دون الإشارة إلى مستوىً لغويٍّ مشترك يميل إلى استعمال أحد هذه الأوجه دون غيرها ويجتمع عليه العرب مهما اختلفت قبائلهم وتناءت أماكن وجودهم .

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى في كتاب سيبويه، فحين تحدَّث سيبويه عن اختلاف العرب في استعمال ((ما)) العاملة عمل ((ليس)) درسها على وفق التقابل بين اللهجات العربية واختلاف استعمالها بين هذه القبائل قائلاً : ((وأمّا بنو تميم فيجرونها مجرى أمّا وهل، أي لا يعملونها في شيءٍ وهو القياس لأنَّه ليس بفعلٍ وليس ما كليس، ولا يكون فيها إضمار.

وأمّا أهل الحجاز فيشبهونها بليس إذ كان معناها كمعناها كما شبهوا بها لاتَ في بعض المواضع ... ومثل ذلك قوله عزَّ وجل : ((ما هذا بشراً)) في لغة أهل الحجاز، وبنو تميم يرفعونها إلا من درى كيف هي في المصحف))(٣٨).

وحين تحدَّث عن إمالة الألفات قال : ((واعلم أنَّه ليس كلُّ من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يُميلُ ولكنَّه قد يخالف كلُّ واحد من الفريقين صاحبَه، فينصب بعضٌ ما يُميلُ صاحبُهُ ويُميلُ بعضٌ ما ينصبب صاحبُهُ، وكذلك من كان النصبُ من لغته لا يوافق غيرَه ممَّن ينصبُ، ولكنَّ أمره وأمر صاحبه كأمر الأوَّلَيْن في الكسر، فإذا رأيت عربياً كذلك فلا تُرَيَنَّه خلَّط في لغته، ولكنَّ هذا من أمرهم))(٣٩).

فأين المستوى اللغويُّ الموحَّد أو الإشارة إليه في هذا الأسلوب من التقعيد، وغيابُهُ هنا دليلٌ على عدم وجوده في العصر الذي ظهرت فيه هذه الدراسات المبكرة وهو القرن الثاني للهجرة .

٣- من الأفكار الرئيسة التي ذهب إليها القائلون بوجود اللغة الأدبية في العصر الجاهلي أنَّ الشعر العربيَّ الجاهلي وصل إلينا مصاغاً بهذه اللغة الموحدة، وليس فيه من الخصائص اللغوية للهجات المحلية شيءٌ، وكذا الأمر بالنسبة إلى من قال بسيادة لهجة قريش قبل

الإسلام، فقد ذهب هؤلاء أيضاً إلى أنَّ الشعر العربي ولاسيما الجاهلي منه وصل إلينا مصاغاً بلهجة قريش بعد أن أصبحت هذه اللهجة لغة الشعر والنثر عند العرب .

والحقُّ أن تتبع منهج اللغويين أو النحاة المتقدمين في رواية الشاهد الشعري كشف أنَّ الشعر العربي – ومنه الجاهلي – تضمَّن الكثير من الخصائص اللغوية للهجات المحلية، وأنَّ أيَّ فكرةٍ تحاول الحكم بخلو الشعر العربي من تلك الخصائص غدت ضرباً من التكلُّف والمجافاة للروح العلمية ومنهج البحث الدقيق.

ومن يعُدْ إلى كتب النحاة المتقدمين فسيجدُ أنَّ الشواهد الشعريةَ فيها تضمُّ الكثير من خصائص اللهجات المحلية التي زعم المحدثون خلوَّ الشعر العربي ولاسيَّما الجاهلي منها .

وحين نقرأ في كتاب سيبويه نجد هذه الحقيقة واضحة في مواضع كثيرة من كتابه، ومن ذلك مثلاً ما جاء في حديث سيبويه عن اختلاف العرب فيما سُمِّيَ عند النحويين بـ((الاستثناء المنقطع)) إذ ينصب أهل الحجاز المستثنى في هذه الحالة، في حين أنَّ بني تميم يرفعونه، قال سيبويه في (هذا باب يُختار فيه النصب لأنَّ الآخر ليس من نوع الأول) : ((وهو لغة أهل الحجاز وذلك قولك : ما فيها أحدٌ إلا حماراً جاءوا به على معنى ولكنَّ حماراً ... وأمَّا بنو تميم فيقولون : لا أحدَ فيها إلا حمارٌ، أرادوا ليس فيها إلا حمارٌ))(٤٠) .

ثمَّ بيَّن كيف أنَّ هذا الخلاف اللهجي دخل الشاهد الشعري (الجاهلي) فقال : ((وعلى هذا أنشدت بنو تميم قول النابغة الذبياني :

يا دارَ ميَّةَ بالعلياء فالسَّنَدِ ... أقوت وطال عليها سالفُ الأبَدِ
وقفت فيها أصيلاناً أسائلها ... عيَّت جواباً وما بالرَّبع من أحدِ
إلّا أواريَّ لأياً ما أبَيِّنُها ... والنؤيُ كالحوضِ بالمظلومةِ الجلدِ

وأهل الحجاز ينصبون))(٤١)، أي يقولون : إلّا أواريَّ .

وكذلك بيَّن في الباب نفسه أنَّ أهل الحجاز ينشدون بيت النابغة :

حلفتُ يميناً غيرَ ذي مثنويَّةٍ ... ولا علمَ إلا حسنَ ظنٍ بصاحبِ

بنصب ((حُسْنَ)) أمَّا بنو تميم فينشدونه بالرفع : ((حُسْنُ))(٤٢) .

وهذا قليلٌ من الكثير الذي يثبت أنَّ الشواهد الشعرية العربية ولاسيَّما الجاهلية منها قد تضمَّنت الخصائص اللغوية للهجات المحلية، وفي ذلك كلِّه ردٌّ على من ادَّعى صياغة الشعر الجاهلي باللغة الأدبية الموحدة أو بلهجة قريش دون سواها .

٤- وإذا تبيَّن أنَّ العصر الجاهليَّ وعصرَ ظهور المصنَّفات اللغوية الأساسية الأولى لم يشهدا ظهور اللغة الأدبية الموحدة، فيبدو أنَّ الراجح ظهورها في العصور التي تلت ذلك، وتقِّر بعض الدراسات المعاصرة أن القرن الرابع الهجري هو القرن المفترض فيه أن يكون قد شهد ولادة اللغة العربية المشتركة الموحدة، وفي ذلك يقول المستشرق الفرنسي يوهان فك : ((وهكذا صارت العربية الفصحى في أوائل القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي لغةً للكتابة قطعت جميع أشواط نموِّها وتكوينها، ولم تعُدْ قابلة لزيادة من النموِّ الحيِّ، فقد غدت لغة قديمة نموذجية، وتغلب إشعاع الجمال الفني في قوالبها على الفاقة الخشنة، والعراء المستكره في لهجات البدو المعاصرين))(٤٣).

بعد هذا كلِّه نخلص إلى انَّ الصورة المفترضة للعربية في العصر الجاهلي – كما تصوِّرها أبحاث القدماء وبعض دراسات المحدثين – هي أنَّها عربيَّة مختلفة في لهجات الخطاب متعددة في مستويات الأداء اللغويَّة، صبْغَتُها العامة هو هذا الاختلاف والتنوع، ويغيب المستوى اللغويُّ الموحَّد المشترك الذي يجتمع عليه العرب ويتحدَّثون به أو يصوغون أدبهم شعرهم ونثرهم على وفق أسسه ومعاييره وقواعده اللغويَّة .

وهذا يعني أننا إذا أردنا أن نبحث عن مصادر لهذه العربية الجاهلية فيجب أن نبحث عن مصادر تعكس وتبيِّن هذا الاختلاف اللهجي الذي كان سائداً في العصر الجاهلي، وهذا ما سنحاول دراسته في المباحث القادمة إن شاء الله .

المبحث الثاني

النقوش القديمة في العصر الجاهلي

قد يتبادر إلى الذهن أنَّ الشعر العربي الجاهلي هو المصدر الوحيد الذي نملكه ونعتمد عليه في تحليل النص اللغوي العربي أو دراسة العربية في عصر ما قبل الإسلام .

والحقُّ أنه على الرغم من أهمية هذا الشعر في دراسة تأريخ العربية قبل مرحلة التدوين لكنَّه لا يمثِّل المصدر الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في دراسة العربية في العصر الجاهلي، بل لابُدَّ من اللجوء إلى مصادر أخرى لهذه العربية تكون أكثر قدرة على تصوير العربية الجاهلية في مراحل تطورها .

وقد دأب الباحثون منذ مطلع القرن الماضي على البدء بدراسة اللقى الأثرية التي عثروا عليها في مناطق متعددة من الجزيرة العربية وأطرافها والانشغال بتحليلها لعلها تكشف لنا جانباً مهماً من تأريخ هذه العربية في عصر ما قبل الإسلام .

وقد نبّه المستشرق إسرائيل ولفنسون على خطأ من لجأ إلى الشعر في سبيل الاعتماد عليه في تصوير العربية الجاهلية، قال – متحدثاً عن المستشرقين – : ((وأمّا هذه الخطة الخاطئة التي وقعوا فيها فهي أنّهم ظنوا أنّ الشعر العربي الجاهلي هو الركن الركين لهذه اللغة والأصل القديم لجميع لهجاتها فبدأوا بالنظر فيه واستخلصوا منه ما شاءوا من النظريات والنتائج دون فرق بين قديمه وحديثه ثم انتقلوا منه إلى الآثار العربية الأخرى ... نحن نؤثر عليها تلك الآثار العربية التي نقشت قبل نزول القرآن الكريم على الصخور والكهوف في نواحي شمال الحجاز وطور سينا وأطراف سوريا))(٤٤).

وأدرك هؤلاء الدارسون أنّ الآثارَ ((هي المرآة التي تتراءى فيها الصور الصحيحة للغات الأمم وعقلياتها))(٤٥)، كما أدركوا أن الدراسات اللغوية المعاصرة قد تحققت لها فائدة كبيرة من تطوُّر الكشوف الأثرية(٤٦) .

ولكن الدارس اللغوي يكتشف حين يشرع بدراسة اللقى الأثرية التي عثر عليها في الجزيرة العربية حين يروم كشف صورة العربية إبّان العصر الجاهلي أنّ تلك الآثار قليلة في معيار الدرس اللغوي .

ومن البدهيات المعروفة في الحياة الجاهلية أنّ الكتابة فيها لم تكن منتشرة انتشاراً واسعاً وأنّ الجاهليين لم يكونوا يلجؤون إلى الكتابة في سبيل تدوين أعمالهم ومنجزاتهم البارزة، ولهذا كان من الطبيعي كما رأى بعض الباحثين ((ألا يصلَ إلينا ما نستطيع به أن نعرف لهجاتهم ونستكشف أصل لغتهم إلا بقايا ضئيلة من هذا النادر القليل مما يجعل مهمة الباحث في هذا الموضوع شاقة صعبة يضطره إلى أن يحتاط في استنتاجاته ويبذل أقصى ما يستطيع من الجهود ليصل إلى نتائج بريئة من الخطأ جهد الطاقة والإمكان))(٤٧) .

ومع كلِّ هذا فقد رأى الباحثون أنّ النقوش التي عثر عليها في بعض مناطق الجزيرة العربية كانت ذات شأن عظيم واحتفوا بها احتفالاً بالغاً لأنهم رأوا فيها مصادر مهمة قد تعين البحث على كشف اللثام عن حقبة مهمة من تأريخ العربية إبّان العصر الجاهلي .

لقد استقرَّ عند الباحثين في تأريخ العربية أنّ النقوش التي تُعَدُّ مصادر مهمة في دراسة العربية في العصر الجاهلي هي : النقوش الثمودية، والصفوية، واللحيانية، ونقش زَبَد، وأم الجمال، وحرَّان، والنِّمارة .

وسنتحدَّث الآن عليها مبينين مدى صلاحها لأن تكون مصادر لدراسة العربية إبّان العصر الجاهلي .

١ – الكتابات الثمودية

تُعَدُّ الكتاباتُ الثموديَّة أو النقوش الثمودية واحدة من أقدم النقوش التي عُثِر عليها في مناطق من شمال الحجاز، وأشار الباحثون إلى أنَّ هذه النقوش ذات ارتباط وعلاقة باللغة العربية(٤٨) .

وقد عُرِفت هذه الكتابات بالكتابات الثموديَّة لأنَّ بعضها وضعتها قبائل ثمود، أو كتب في مواضع تسكنها قبائل ثمود، كما وجدت بعض هذه الكتابات في مناطق مثل نجد وهضبات شبه جزيرة طور سينا ((لذلك من المحتمل أنَّ ثمود نقلت هذه الخطوط من عشائر عربيَّة أخرى أو أنَّ هذا القلم نقل عن آل ثمود إلى أقوام أخرى))(٤٩) .

وقد نبَّه إسرائيل ولفنسون على أنَّ إطلاق مصطلح ((الكتابات الثمودية)) على مثل هذه الكتابات لم يكن دقيقاً ويقينياً من الوجهة العلمية البحتة (٥٠)، ربما كان بسبب كثرة المناطق التي وجدت فيها هذه الكتابات سواءٌ تلك التي سكنتها القبائل الثمودية أم المناطق التي سكنتها القبائل الأخرى التي استعملت هذه الكتابات، أو ربما بسبب تعدُّد القبائل التي استعملت هذه الكتابات .

وقد وجد الباحثون أنَّ هذه الكتابات الثموديَّة كانت موجزة جداً ومختصرة، وقد ولد إيجازها هذا صعوبات كبيرة في دراستها وتحليلها والاستفادة منها في البحث اللغوي التأريخي وقد كان ذلك – كما رآها هؤلاء الدارسون – بسبب إيجازها، وكانت خاضعة في كثير من الأحيان للتأويل، وقد أوقعت الدارسين في حيرة حين حاولوا ترجمتها(٥١) .

ومما زاد في صعوبة الاستفادة من هذه النقوش أنها لم تكن مكتوبة بخط أناس مختصين أو عارفين بالكتابة، بل كتبت – كما أشار الدارسون – بخط مجموعة من الرعاة أو رجال القبائل على سبيل التسلية أو الذكرى(٥٢)، ولذلك طبعت هذه الكتابات بطابع شخصي في الغالب ((ولمَّا كان أصحابها من هذه الطبقة فلا نأمل بالطبع أن تكون كتابتهم في مستوىً عالٍ من الأسلوب الأدبي، وفي لغة خالية من الشوائب والأغلاط النحوية))(٥٣)، وهذا كله يجعل الاستفادة منها في مجال البحث اللغوي ضئيلة .

وأبرز النقوش الثمودية التي تخضع غالباً لبحث الدارسين ومناقشاتهم هو هذا النقش الذي نصه :

((دنه قبور صنعه كعبو بر حرثت للقض برت عبد منوتي امه دي هلكت في الحجر شنت ماه وشتين وترين بيرح تموز ولعن مري علما من يشنا القبور دا ومن يفتحه حشى يلده ولعن من يغير دا على منه))(٥٤) .

وكانت ترجمته ومعناه على النحو الآتي : ((هذا القبر صنعه كعب بن حارثة للقيض بنت عبد مناة أمه التي هلكت في الحجر سنة مئة واثنتين وستين من شهر تموز، ولعن رب العالمين من يغير هذا القبر ومن يفتحه ويمس أولاده، ولعن من يغير الذي كتب في أعلاه))(٥٥) .

ولهذا النص أهمية كبيرة، فهو من الناحية التأريخية يعد أقدم النقوش التي وصلت إلينا تحمل بعض العناصر اللغوية العربية، إذ يعود تأريخه إلى سنة ١٠٦ بعد الميلاد(٥٦)، أمّا من الناحية اللغوية فقد عدّه الباحثون أقدم النصوص المدّونة بلهجة قريبة من اللهجة القرآنية (٥٧)، إلا أنّ الإفادة منه في الدرس اللغوي قد واجهتها بعض الإشكالات المنهجية، منها : أنّ هذا النقش مدون بثلاث لهجات : اللهجة الثمودية، والإرمية، والعربية، فهو خليط من هذه اللهجات ((ففيه كلمات ثمودية وأخرى عربية، وأخرى إرمية صيغت صياغة عربية تنبئ أنّ الكاتب كان عربيّاً وأنّه كان يستعمل إرمية متأثرة بالثمودية فكتب كتابه على هذا النحو))(٥٨) .

وإذا تأملنا العنصر العربي في هذا النقش فسنجده محدوداً قليلاً لا يُقدِّم مادة كافيةً تعين الباحث على تكوين تصوُّرٍ مناسب لصورة (العربية) إبّان تلك العصور القديمة، وهذه العناصر العربية، هي : قبور صنعه، كعبو (وهي : كعب، والواو حركة الإعراب)(٥٩)، للقض (للقيض)، امه، هلكت في الحجر، ولعن، القبور، ومن يفتحه، ولعن من يغير ذا .

وهذه العناصر – على الرغم من أهمية الكتشاف استعمالها في القرن الثاني للميلاد – تبقى عناصر محدودة لا تعطي تصوراً واضحاً للغة العربية إبان ذلك القرن، يقول إسرائيل ولفنسون : ((والنقوش الثمودية بصفة عامة موجزة جداً حتى ليكاد المعنى يخفى على القارئ خفاءً تاماً أو يصبح عرضه لتفاسير وتأويلات شتى ... وهي على غموضها هذا عربية وقريبة من الأسلوب العربي الذي كان مستعملاً في عصر ظهور الإسلام أكثر من غيرها، ومنها يقف الباحث على أسماء الأصنام والأعلام وعلى جملة من التقاليد في الأحوال الدينية والاجتماعية))(٦٠).

٢ – الكتابات الصفويّة

عثر المنقبون على مجموعة من النقوش واللقى الأثرية في المنطقة المسماة بالحرّة بين جبل الدروز وتلول أرض الصفاة، وقد نسب المستشرقون هذه اللقى الأثرية إلى منطقة الصفاة، فسموها بالنقوش الصفوية علىة الرغم من أنّها اكتشفت في المنطقة القريبة من أرض الصفاة(٦١) .

ويرى المؤرخون أن الصفويين هم مجموعة من القبائل العربية من جنوبي الجزيرة العربية كانوا يتنقلون من مكان إلى آخر طلباً للماء والكلأ، وكانت هذه القبائل تمرُّ بأرض الصفا أو الصفاة كلَّ عام وهذا هو الذي دفع الباحثين نحو تسمية تلك القبائل بـ(الصفوية) نسبة إلى الأرض التي تركوا فيها الكثير من كتاباتهم على الأحجار، وهذا يعني أن كلمة (الصفويين) لا تعني شعباً معيَّناً أو قبيلة معينة، كما أنه ليس بين أيدي الباحثين أية معلومات عن الاسم القديم لسكان إقليم الصفا(٦٢).

وقد احتفل الباحثون المؤرخون واللغويون احتفالاً بالغاً بالنقوش الصفوية التي بلغ عددها حتى سبعينيات القرن العشرين ما يقرب من ١٧٥٠ نقشاً، وقد بذل العلماء جهوداً في أكثر من نصف قرن حتى تمكنوا من فك رموز النقوش الصفوية وخطها(٦٣).

وحدَّد بعض المستشرقين زمن كتابة النقوش الصفوية ورأى أنها تعود إلى القرن الأول والثاني والثالث بعد الميلاد(٥)، ويرى باحثون آخرون أن أقدم هذه النقوش يعود إلى القرن الأول قبل الميلاد، وأنَّ آخر ما عثر عليه يعود إلى القرن الثالث بعد الميلاد(٦٤).

أمَّا من الناحية اللغوية فإن الباحثين وجدوا أن الخطوط الصفوية مكونة من ثمانية وعشرين حرفاً كما هو الحال في العربية وهذا هو الذي دفع بعض المستشرقين نحو الاعتقاد بأنَّ كاتبي هذه النقوش كانوا عرباً، ليس بينهم وبين القبائل في الجزيرة العربية فروق كبيرة (٦٥)، بل وجدوا في هذه النقوش تعابير تجعلها قريبة من اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم (٦٦) .

وقد وجد الباحثون أنَّ خصائص اللهجات السامية الشمالية، أو خصائص اللهجات العربية الشمالية هي الغالبة على لغة الكتابات الصفوية ولذلك عدَّ العلماء هذه اللهجة من اللهجات العربية الشمالية وفرعاً من فروعها (٦٧) .

وتبين أن أبرز الخصائص اللغوية العربية في هذه النقوش هي : تكونها من ثمانية وعشرين حرفاً كما هو الحال في العربية، ووجود ما فيها من الأصوات الأسنانية، والتفريق الذي لا يوجد إلا في العربية بين صوتي العين، والغين، وصوتي الحاء والخاء (٦٨) .

ومن العناصر اللغوية العربية في النقوش الصفوية ما فيها من كلمات مثل : أسد، ولث (ليث)، وغزالي (غزال)، وإبل، وجمل، وبكر، ومهر، ومهرة، وحمار، وضأن، وماعز، وبقر، ووعل...إلخ (٦٩).

وعلى الرغم من وجود هذه العناصر اللغويَّة فيها إلا أنَّها قد لا تكون مصادر كافية في رسم صورة العربية في العصر الجاهلي، وذلك لأسباب متعدِّدة منها : أنَّ الباحثين أشاروا

إلى أنَّ هذه النقوش هي نقوش قصيرة ومنقوشة نقشاً سطحياً، بلا نظام على حجارة خشنة أو محفورة على الحجارة الملساء (٧٠)، وأكثر ما فيها ليس سوى أعلام(٧١)، سواءٌ أكانت لأشخاص أم لحيوانات أم لأصنام .

ومما يدعو إلى عدم الاعتماد عليها في رسم صورة العربية إبان تلك العصور أنَّ هذه النقوش تضم كلمات غير مألوفة في العربية أخذت من السريانية والعبرية، وأعلاماً غير مألوفة في العربية، مثل : رفأل، وعزرأل، وسمرأل وغيرها، وأفعالاً غير مألوفة كذلك في العربية، فضلاً عن الأساليب والتراكيب البعيدة عن الروح العربية والجملة العربية السليمة(٧٢) .

ويقول الدكتور جواد علي في نقد هذه النقوش : ((وقد تكون من كلمة واحدة في بعض الأحيان، ولما كان معظمها في هذه الأمور (٧٣) صارت أساليبها في الإنشاء متشابهة، ولا تختلف أحياناً إلا في أسماء أصحابها وهي لذلك لا تفيدنا كثيراً من ناحية الدراسات اللغوية(٧٤).

فضلاً عن ذلك كله فإن العثور عليها في أماكن بعيدة عن المواطن العربية الأصلية، في أماكن اختلطت عناصر الحضارات المختلفة، وتأثرَ هذه النقوش بعناصر تلك الحضارات كلها مما جعلها بعيدة عن الأسلوب العربي واللغة العربية الأصيلة (٧٥) – كل ذلك دعا الباحثين إلى التقليل من فرص الاعتماد على النقوش الصفوية في تكوين تصور واضح عن عربية القرون الميلادية الأولى .

٣ – الكتابات اللحيانية

تُعَدُّ الكتابات اللحيانية من أقلِّ الكتابات حظاً في القدرة على إعطاء تصور عن طبيعة العربية في العصر الجاهلي ويعود ذلك إلى جملة أسباب لعلَّ من أبرزها أنَّ النقوش اللحيانية التي عثر عليها هي أجزاء نقوش لا نقوش كاملة، وجلُّ كلماتها في غاية الإبهام (٧٦) .

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ الدارسين عدّوا هذه النقوش نقوشاً عربيةً، يقول إسرائيل ولفنسون : ((على أنَّه مما لا ريب فيه أنَّ لغتها عربية ويوجد فيها حروف الذال والثاء والغين والضاد كما يوجد فيها أفعل التفضيل وعلامة التنبيه التي هي من الخصائص البارزة للغة العربية))(٧٧).

ويؤكد بعض الدارسين المحدثين أنَّ النقوش اللحيانية ترد فيها قواعد موجودة هي نفسها في عربية القرآن الكريم، يقول الدكتور جواد علي عن هذه النقوش اللحيانية : ((وفيها قواعد تردُ في العربيات الجنوبية وقواعد ترد في عربية القرآن الكريم)) (٧٨) .

وعلى الرغم مما يظهر فيها من العناصر الأجنبية غير العربية فإنّ الدارسين المحدثين يؤكدون كون (اللحيانية) لهجة من اللهجات العربية الغربية، يقول الدكتور جواد علي : ((واللحيانية مع اختلافها في القواعد عن عربية القرآن الكريم، هي لهجة من اللهجات العربية الغربية القريبة من هذه اللهجة لهجة الشعر الجاهلي، ولو دُرِست كتابتها دراسة صحيحة دقيقة وقوبلت بالعربية المضرية، ولو كانت كتابات القوم على وفق كتابات الإسلاميين لوجدنا أن الشقة بين اللحيانية والعربيات الغربية ليست كبيرة على ما نتصورها، واتساع هذه الشقة مردُّهُ في الواقع إلى قلة اطلاعنا على تلك الكتابات، وعدم استعمالنا العربية أساساً في دراستنا لها))(٧٩).

وعلى الرغم من انتماء الكتابات اللحيانية إلى الكتابات العربية في العصر الجاهلي فقد برزت مجموعة من الأسباب صدّت عنها الباحثين عن صورة العربية في العصر الجاهلي، ومن أبرزها : أن النقوش اللحيانية هي أجزاء نقوش وليست نقوشاً كاملة (٨٠)، وتضم بين طياتها الكثير من العناصر غير العربية، كاللغة العبرانية، والعربيات الجنوبية (٨١)، فضلاً عن ذلك فإنّ الكتابات اللحيانية كتبت في أمور شخصية وليس فيها نص مطوّل يتحدَّث عن قضايا سياسية أو اجتماعية أو قانونية (٨٢)، ((وكتابات هذه طبيعتها وهذا شأنها لا يمكن استنباط رأي واضح منها في أسلوب كتابتها ولا في طبيعة لغة أربابها وكيفية تطورها ونموها، ولا في قواعد صرفها ونحوها بصورة كاملة واضحة))(٨٣) .

إنّ هذا العرض لهذه النقوش الثلاثة وطبيعتها يقودنا إلى الخروج بنتيجة وهي أنّها جميعاً – على الرغم من أهميتها واحتوائها مجموعة من العناصر اللغوية العربية – غير قادرة على إعطاء تصوُّر واضح وناضج حول طبيعة العربية وصورتها في العصر الجاهلي، ولكنّها ليست النقوش وحدها التي عثر عليها في مناطق الجزيرة العربية المختلفة بل ثمة نقوش أخرى سنعرضها لعلها تكشف بعض الشيء عن العربية الجاهلية .

٤ – نقش النمارة

عثر المستشرقون في الجهة الشرقية من جبل الدروز على نقش ذي أهمية بالغة يعود تأريخه إلى سنة ٣٢٨ بعد الميلاد، وقد كان شاهداً لقبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب آنذاك، وقد سُمِّيَ هذا النقش بنقش النمارة، والنمارة قصر صغير للروم في الجهة الشرقية لجبل الدروز (٨٤) .

وقد استعمل كاتب هذا النص اللغتين العربية والنبطية في تدوين نقش النمارة، واستعمال النبطية هنا كان بسبب أن هذه اللغة كانت يومذاك لغة الكتابة ومتغلبة على غيرها، إلا أنَّ ذلك لم يمنع العربية من الظهور في هذا النقش بسبب أنَّ كاتبه كان عربياً (٨٥) .

وقد تناقل الباحثون نص نقش النمارة، وهو في خمسة أسطر (٨٦) :

(١) تي نفس (نقش) مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج

(٢) وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب محجو عكدي وجا

(٣) يزجي في حبج نجرن مدينة وملك معدو ونزل بنيه

(٤) الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه

(٥) عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده .

وترجمته على النحو الآتي (٨٧) :

١- هذا قبر امرئ القيس بن عمرو، ملك العرب كلهم، الذي حاز التاج .

٢- وملك الأسدين ونزاراً وملوكهم، وهزم مذحجاً، وجاء

٣- بغنائم في مجتمع نجران مدينة شمَّر، وملك معدّاً، وأنزل بنيه

٤- الشعوب، ووكله الفرس والروم، فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥- اليوم هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول، فليسعد الذين ولدهم .

وفي هذا النص تراكيب عربية واضحة مثل : ملك العرب كله، مدينة، ونزل بنيه، فلم يبلغ ملك مبلغه، أما ما تبقى فهي تراكيب غير عربية جاءت بسبب أنَّ الكتابة لم تكن حينذاك تتمُّ بقلمٍ عربي كما أشار إلى ذلك بعض الدارسين (٨٨) .

ويتحدث إسرائيل ولفنسون عن هذا النقش وعمَّا فيه من جمل عربية سليمة فصيحة ولا سيما قول كاتبه ((فلم يبلغ ملك مبلغه)) إذ يقول عنها : ((وقد راجعناها مراراً عديدة وهي واضحة لا يشكُّ القارئ في صحتها لذلك يمكن يحتمل أنَّ الكاتب تكلف في أن يضع نقشه في قالب سرياني ولعلَّ ذلك هو السبب في وجود بعض الألفاظ المبهمة في الآرامية والعربية معاً))(٨٩)، ويصف هذه الجملة أيضاً مؤكداً أنها : ((أقدم ما وجد إلى يومنا من الأسلوب العربي الجاهلي))(٩٠).

وورود هذه التراكيب العربية دليل على أنَّ أصحاب هذا النص كانوا عرباً وإن كتبوا بغير العربية، يقول الدكتور جواد علي : ((وإذا فحصنا لهجة أصحاب هذا النص نجد لهجتهم عربية، وإن كتبوا نصهم بلغة إرم، وذلك بأنهم لو كانوا من أصل غير عربي لما استعملوا في

نصهم هذا تراكيب عربية سليمة، لا يستعملها إلا من كان لسانه عربياً مطبوعاً على هذه اللغة))(٩١) .

ويقول ولفينسون : ((والذي يزيدنا يقيناً في صحة ما نذهب إليه من أن الكاتب كان له إلمام باللغة العربية استعماله لألفاظ فصيحة مثل ((ونزّل بنيه الشعوب)) ((وملك العرب كلها)) ((وهلك سنة)) ...))(٩٢) .

ولكن إيجاز النص من جهة، وكونه شاهداً لقبر لا يستعمل إلا تعبيرات محدودة كالأعلام وبعض التواريخ من جهة أخرى، جعل إمكانية الإفادة منه في رسم صورة عربية العصر الجاهلي محدودة، وإنْ عَدَّ الباحثون هذا النقش أقرب إلى خصائص العربية الفصحى من النقوش الثمودية والصفوية واللحيانية (٩٣).

٥- نقش زَبَد

في مكان خرب في المنطقة الواقعة بين قنسرين ونهر الفرات عُثِر على نقش عرف عند الدارسين بنقش ((زبد)) يعود تأريخه إلى سنة ٥١١ بعد الميلاد (٩٤)، أو ٥١٢-٥١٣ بعد الميلاد (٩٥) .

وقد وجد أن هذا النص قد كتب بثلاث لغات هي : اليونانية والسريانية والعربية (٩٦)، والقسم العربي ذو مادة قليلة شحيحة أكثرها أعلام وأسماء رجال، وقد أورد الدكتور رمضان عبد التواب أرجح قراءات هذا النص، وهي (٩٧) :

١-(بنصـ)ـر الإله سرجو بر أمت منفو وهليا بر مر قيس .

٢-وسرجو بر سعدو وسترو وشريحو بتميمي .

وقد عزف الباحثون عنه منذ وقت بعيد ولم يجدوا فيه ما يقدم مادة غنية تفيد البحث اللغوي كثيراً (٩٨)، يقول الدكتور جواد علي : ((وليس في هذا النص ما يفيدنا من ناحية البحث اللغوي، فهو مجرد أسماء وقد صيغ بالطريقة النبطية، والشيء الوحيد الذي فيه هو خطه القريب من القلم الإسلامي القديم، وهو مفيد في دراسة تطور الخطوط العربية قبل الإسلام وعند ظهوره))(٩٩).

ودراسة هذا النص من الناحية التأريخية اللغوية لا تنفع في اكتشاف ملامح العربية الجاهلية في العصر الذي ظهر فيه وهو أوائل القرن السادس الميلادي .

٦- نقش أم الجِمال

عثر المستشرق الألماني ((إنّو ليتمان)) عام ١٩٠٥م في قرية أم الجمال – وهي قرية عربية مسيحية قرب ((بُصرى)) بالقرب من ((عَمان)) – على نقش عُرِف عند الدارسين بنقش ((أم الجمال))(١٠٠) .

وقد عدَّ الدارسون هذا النقش من مصادر عربية العصر الجاهلي أو كما اصطلح عليها بعضهم بعربية النقوش (١٠١)، ويعود تأريخه إلى أوائل القرن السادس الميلادي (١٠٢) .

وهذا النقش كما بيَّن الدارسون وعرضوه هو نصٌّ موجز مختصر ليس سوى دعاء بالمغفرة لكاتب ما، ولا يوفِّر للباحث اللغوي الفرصة في تبيُّنِ ملامح العربية الجاهلية من خلاله بسبب إيجاز عبارته من جهة وما وُجِدَ فيه من كسرٍ أضاع جانباً من نصِّه (١٠٣) .

وقد قرأ المستشرق الألماني ليتمان النقش على النحو الآتي (١٠٤) :

١-الله غفرا لأليه .

٢-بن عبيدة كاتب .

٣-الخبير أعلى بني .

٤-عمرى صلو عليه من .

٥-يقرؤه .

ويرى أن معناه هو : ((يارب اغفر لأليه بن عبيدة، الكاتب الخبير، أشرف بني عمرو، ادع أيها القارئ)) (١٠٥).

٧- نقش حرَّان

عُثِرَ في المنطقة الواقعة شمال جبال الدروز فوق أبواب إحدى الكنائس على نقش عرف عند الباحثين بنقش حرَّان يعود تأريخه إلى عام ٥٣٨م (١٠٦) أو عام ٥٦٠م على نحو ما تذهب إليه بعض الدراسات (١٠٧) أو ٥٦٨م كما تذهب دراسات أخرى (١٠٨).

وقد حظي هذا النقش باهتمام الدارسين وعنايتهم، فهو أقرب النصوص التي عُثِرَ عليها من العربية الفصحى، وقد وصفه الدكتور جواد علي قائلاً بأنَّه : ((النصُّ الوحيد الذي استطاع أن يتهرب من لغة النبط وأن يكتب بلغة عربية شمالية قريبة من اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، أو هي اللغة نفسها))(١٠٩).

أمَّا نصُّ هذا النقش فهو على النحو الآتي(١١٠):

((أنا شرحيل بر ظلمو ((ظالم)) بنيت ذا المرطول سنت ((سنة)) ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم ((بعام)) ..)) ومعناه : ((أنا شراحيل بن ظالم، بنيت هذه الكنيسة، سنة ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعام))(١١١).

وقد ظهرت في هذا النص بعض العناصر اللغوية اليونانية (١١٢) مثل استخدام : مرطول بمعنى : كنيسة، ولكن الغالب عليه العنصر العربي كما هو واضح .

وعلى الرغم من أهمية هذا النص وعدّه أبرز النصوص الجاهلية وأهمها عند الباحثين في تأريخ العربية التي نزل بها القرآن الكريم(١١٣)، إلا أنه لا ينهض ليكون مصدراً مهماً من مصادر دراسة العربية في العصر الجاهلي، وذلك لإيجازه من جهة، ولاحتوائه بعض العناصر غير العربية من جهة أخرى، إلا أن ذلك كله لا يقلل من أهميته في دراسة تأريخ العربية والخط العربي إبان تلك العصور (١١٤) .

وأخيراً لابدّ من أن نقول كلمة في هذه النقوش كلها، فقد عرفناها وعرضنا قسماً منها ورأينا كيف أن بعضها يبتعد عن العربية وروحها حتى يكاد يفارقها وبعضها يقترب حتى يُعدّ أبرز ما وصل إلينا من عربية العصر الجاهلي ولكنها لا تنهض مجتمعة لتكوّن لنا مصادر واضحة غنية للعربية إبان عصر ما قبل الإسلام .

وقد أشار إلى هذه الحقيقة عدد غير قليل من الدارسين المحدثين، ومن هؤلاء الدكتور علي عبد الواحد وافي القائل : ((ويظهر من هذه النقوش أن المتكلمين بتلك اللهجات كانوا في عزلة تامة عن عرب نجد والحجاز، وأنهم فقدوا كثيراً من مقوماتهم العربية، وصبغوا بالحضارة الآرامية والنبطية، حتى أنهم ليؤرخون نقوشهم بحرب النبط وتأريخ بصرى وحروب الفرس والروم))(١١٥) .

وكذلك الدكتور إبراهيم أنيس الذي يحدثنا عن هذه النقوش ونصوصها قائلاً : ((وحين نسلم جدلاً أن لغة هذه النقوش تمثل مرحلة من مراحل اللغة العربية يجب أن نعترف أن نصوصها ضحلة لا تقنع الباحث لتلقي ضوءاً كاشفاً عن حال اللغة العربية في تلك العهود، فهي في مجموعها لا تكاد تعادل سفراً صغيراً من أسفار العهد القديم، هذا إلى أن كثيراً من كلماتها عبارة عن أعلام لأشخاص ولا تكاد تجدي مثل هذه الأعلام في البحث اللغوي، وفوق هذا وذاك تعرض هذه النقوش لأمور متشابهة كتسجيل تأريخ كنيسة أو قبر، مما جعل كثيراً من عباراتها وألفاظها يتكرر ويجعل نصوصها قليلة القدر لا تكفي في بحث لغوي جدّيّ، ولكنها ربما تفيد بعض الفائدة في البحث التأريخي))(١١٦).

ويقول الدكتور مراد كامل : ((وكنا نتوقع أن نجد في هذه الكثرة من النقوش مادة كافية لتأريخ اللغة العربية قبل الإسلام ولكن للأسف لم تعالج هذه النقوش إلا موضوعات قليلة غير منوعة فهي لذلك لا تحمل إلينا مادة لغوية كاملة، وبالتالي فإننا لا نفيد منها إلا بمقدار، وكان هذا هو السبب في أننا لا نعتبرها لغاتٍ متكاملةً بل لغات نقوش ينقصها الكثير من الصيغ والتراكيب))(١١٧) .

ولما كانت اللغة العربية إبان العصر الجاهلي ذات طبيعة متنوعة في مستويات أدائها مختلفة في لهجاتها، وتستقلُّ كل قبيلة بلهجة تبتعد قليلاً أو كثيراً عن لهجة قبيلة أخرى كما أوضحت في المبحث الأول، وكانت النقوش لا توفر الفرصة لمعرفة هذه الطبيعة عن اللغة العربية في العصر الجاهلي لذا كان لزاماً البحث عن مصادر أخرى لعلها تكون كافية في إلقاء الضوء على العربية وطبيعتها في عصر ما قبل الإسلام .

المبحث الثالث

(الشعر) و (العربية) في العصر الجاهلي

لقد أدركنا أن النقوش العربية القديمة التي تم اكتشافها لا يمكن الاستعانة بها لتصوير طفولة اللغة العربية هذه الغائبة عنا، ولا العربية الجاهلية التي عاشت قبيل ظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم، إذ إنها كلها نصوص موجزة، تضم عبارات متشابهة قد لا تصلح لشيءٍ سوى للبحث التاريخي المجرد من المحاولات اللغوية .

وأمام هذه الحقيقة فإنَّ لنا أن نتساءل : هل يمكن التعرف على طبيعة (العربية) في العصر الجاهلي قبيل ظهور الإسلام، وبالتحديد خلال قرنين قبل ظهر السلام من خلال مصدر من المصادر الموجودة بين أيدينا وهو الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا من الشيء الكثير؟ فلقد أدرك غير واحد من الدارسين المحدثين أن ليس بين أيدينا – إن أردنا دراسة العربية في العصر الذي سبق الإسلام – مصدر يصور العربية غير الشعر الجاهلي، يقول الدكتور إبراهيم أنيس : ((في حين أن أقدم نصوص العربية على الصورة المألوفة لنا لا تكاد تجاوز قرنين من الزمان قبل الإسلام، وتلك النصوص التي ندرسها ونسميها بالأدب الجاهلي))(١١٨).

ويتحدث عن طفولة اللغة العربية – ويعني ما نعنيه نحن بعربية العصر الجاهلي (قبل الإسلام) – ومصادر دراستها ويقول : ((لهذا كان من رأيي المتواضع عدم الاعتماد على لغة النقوش في دراسة طفولة اللغة العربية، قانعين بدراسة تلك النصوص التي لا نشك

في صحتها من الأدب الجاهلي، ففيها القدر الكافي لتوضيح حال اللغة العربية قبل الإسلام))[١١٩] .

المطلب الأول

الموقف من مصدرية الشعر الجاهلي لعربية ما قبل الإسلام

لقد استقر عندنا في المبحث الأول أن العربية قبل الإسلام عرفت بتعدد لهجاتها واختلاف مستويات الأداء اللغوية، ورأينا أن النقوش القديمة غير صالحة لتمثيل أو تصوير العربية في هذا العصر الجاهلي، فهل يستطيع الشعر الجاهلي أن يكون مصدراً مفيداً لدراسة العربية في هذا العصر ؟ أي : هل أن (العربية) التي يصورها الشعر الجاهلي عربية مختلفة في لهجاتها، تظهر فيها آثار اختلاف اللهجات القبلية العربية ؟ إننا – من أجل أن نحدد صلاحية أن يكون الشعر الجاهلي مصدراً لهذه العربية – لا بُدَّ أن نجيب عن هذه التساؤلات المهمة .

أولاً – موقف القدماء من العلاقة بين الشعر الجاهلي و لهجات القبائل

البحث عن نصوص نظرية وافرة تحسم القول في موقف القدماء من العلاقة بين الشعر الجاهلي واختلاف لهجات القبائل قد يبدو صعباً بعض الشيء إذ ليس من السهولة العثور في التراث اللغوي العربي على نصوص تتحدث عن قضية إدخال العناصر اللهجية المحلية في الشواهد الشعرية المختلفة ومنها شواهد الشعر الجاهلي .

ولكن صعوبة الحصول على هذه النصوص لا يعني أنها غير موجودة بل هي موجودة وإن كانت قليلة قياساً إلى ضخامة التراث اللغوي العربي .

وأول النصوص التي عثرت عليها تتحدث عن أن الرواة قد تغير الشواهد الشعرية على وفق قواعد لغتها سواءٌ خالفت لغة الشاعر أم وافقته ما جاء في قول اللغوي أحمد بن محمد بن ولّاد (ت ٣٣٢هـ) حين قال : ((لأن الرواة عن الفرزدق وغيره من الشعراء قد تغير البيت على لغتها وترويه على مذاهبها مما يوافق لغة الشاعر ويخالفها، ولذلك كثرت الروايات في البيت الواحد، ألا ترى أن سيبويه قد يستشهد ببيت واحد لوجوه شتى، وإنما ذلك على حسب ما غيرته العرب بلغتها، لأن لغة الراوي من العرب شاهد كما أن قول الشاعر شاهد إذا كانا فصيحين))(١٢٠) .

ويقول الأعلم الشنتمري (ت ٤٧٦هـ) : ((وسيبويه غير متهم فيما نقله رواية عن العرب، فيجوز أن يكون البيت[١٢١] من قصيدة منصوبة غير هذه المعروفة، أو أن يكون الذي أنشده ردّه إلى لغته فقبله منه سيبويه منصوباً فيكون الاحتجاج بلغة المنشد لا بقول الشاعر))(١٢٢) .

ويقول ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) : ((وكانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض، وكلٌ يتكلم بمقتضى سجيته التي فطر عليها، ومن ههنا كثرت الروايات في بعض الأبيات))(١٢٣) .

وعلى الرغم من أن هذه النصوص لم تصرح بذكر الشعر الجاهلي، لكن صيغة التعميم التي استعملها (لأن الرواة عن الفرزدق وغيره من الشعراء) و (كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض) تصلح للقول بأن ذلك يطال الشعر الجاهلي أيضاً .

فليس من الخطأ المنهجي في شيء القول – بعد دراسة هذه النصوص – بأن بعض نصوص القدماء توحي بأن الشعر العربي بصورة عامة ومنه الشعر الجاهلي قد تضمن عدداً من الخصائص اللغوية للهجات المحلية، وهو يعني أن الشعر الجاهلي يصلح أن يكون مصدراً يصور العربية ذات الطبيعة المختلفة المتنوعة في العصر الجاهلي، ولكن يجب القول إن ذلك – أي : قبول الشعر الجاهلي مصدراً لهذه العربية – يبقى افتراضاً يصلح للقبول أو الرفض حتى تقوم أدلة قاطعة تشهد لمصدرية الشعر الجاهلي بالقبول، ولعل في الصفحات القادمة الفرصة المناسبة لعرض مثل هذه الأدلة .

ثانياً – موقف المحدثين من العلاقة بين الشعر الجاهلي لهجات القبائل

اختلف الدارسون في العصر الحديث حول قضية هل أن الشعر العربي بصورة عامة والجاهلي على نحو خاص تضمن خصائص اللهجات المحلية أم لا ؟

ونستطيع القول : إن الباحثين افترقوا حول هذه القضية فرقتين أساسيتين، واختلفوا في بحث هذه القضية تبعاً لاختلاف مصادرهم العلمية ومناهج تفكيرهم .

وأول الاتجاهين الحديثين اللذين برزا في تناول هذا الموضوع هو مذهب عدد من الدارسين المحدثين في أن الشعر العربي لم يتضمن الخصائص اللهجية المحلية ولم تظهر فيه أثر اختلاف اللهجات العربية وتنوع استعمالها للظواهر اللغوية المختلفة، وأن الشعر العربي ومنه الجاهلي صيغ بلغة موحدة خالية من آثار اللهجات، ومن هؤلاء لفيف من الدارسين المستشرقين والباحثين العرب، فمثلاً يقول المستشرق الألماني تيودور نولدكه : ((وقد

سيطرت في الجزيرة العربية نفسها، في القرن السادس الميلادي تلك اللغة التي يسميها المرء (اللغة العربية) إلى حدٍّ بعيد جداً، لأنها أهم لغة تكلم بها العرب مطلقاً، فالشعر الذي ازدهر حينذاك في كل وسط الجزيرة العربية وشماليها حتى أسفل الفرات وما وراء ذلك، هذا الشعر يستعمل لغة موحدة ... ويمكن للمرء أن يظن أن لغة الشعر كانت على الأقل بالنسبة لمعظم العرب لغة فنية مصنوعة))(١٢٤) .

وحين انتقلت هذه القضية إلى الباحثين العرب أظهر بعضهم قناعته بمثل هذا الاتجاه ومن هؤلاء الدكتور طه حسين [١٢٥] الذي درس هذه القضية في كتابه (في الأدب الجاهلي)، الذي دعاه إيمانه وإصراره على أن الشعر الجاهلي وصل إلينا خالياً من آثار اختلاف اللهجات الذي كان سائداً في عصر ما قبل الإسلام دعاه ذلك إلى إنكار أو توكيد إنكار نسبة الشعر الجاهلي إلى عصر ما قبل الإسلام وإلى القول بأن هذا الشعر صيغ صياغة فنية مصنوعة في العصر الإسلامي، وقد ذهب قائلاً : ((وكان من المعقول أن تختلف لغات العرب العدنانية وتتباين لهجاتهم قبل ظهور الإسلام، ولاسيما إذا صحت النظرية التي أشرنا إليها آنفاً وهي نظرية العزلة العربية، وتبين أن العرب كانوا متقاطعين متنابذين، وأنه لم يكن بينهم من أسباب المواصلات المادية والمعنوية ما يمكن من توحيد اللهجات))[١٢٦]، ثم قال : ((فإذا صحَّ هذا كله كان من المعقول جداً أن تكون لكل قبيلة من هذه القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها في الكلام، وأن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات في شعر هذه القبائل الذي قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة، ولكننا لا نرى شيئاً من ذلك في الشعر الجاهلي))[١٢٧]، ثم قال : ((وتستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر بشيءٍ يشبه أن يكون اختلافاً في اللهجة أو تباعداً في اللغة أو تبايناً في مذهب الكلام))[١٢٨] .

ويقول الدكتور إبراهيم أنيس : ((ولهذا رويت لنا الآثار الأدبية القديمة في لغة موحدة، لا تشتمل على خصائص من تلك التي رويت عن اللهجات العربية القديمة، ولا يعقل أن الرواة رووها موحدة، وغيروا تلك الصفات الخاصة التي يمكن أن يكون قد اشتمل عليها شعر شاعر من قبيلة عرفت بلهجة من اللهجات، لأن مثل هذا التغيير ليس ممكناً في كل الحالات فإذا أمكن عمله في النثر فإن الوزن الشعري يأباه في بعض الأحيان))(١٢٩) .

إنّ أخذ هذا الاتجاه بنظر الاهتمام، والقول به يؤدي إلى القول بعدم صلاحية الشعر الجاهلي لأن يكون مصدراً لدراسة عربية ما قبل الإسلام وهذا ما صرّح به أحد الدارسين المحدثين وهو الأستاذ غالب فاضل المطلبي الذي رأى أن من الصعوبة البحث عن اللهجات العربية القديمة في الشعر العربي، ووجد أن من أسباب ذلك ((أنّ هذا الشعر لم ينظم بلهجة

بعينها، وإنما بالعربية الأدبية (الفصحى)، فإذا كان لابُدَّ للشاعر أن يتأثر بلغة بيئة فإنَّ ذلك التأثر يبقى محدوداً جداً))(١٣٠) .

وأما الاتجاه الآخر الذي برز عند الدارسين المحدثين فهو النقيض للاتجاه السابق تماماً، إذ رأى عددٌ من الدارسين أن الشعر العربي ومنه الجاهلي قد تضمن خصائص اللهجات المحلية، وأن آثار اللهجات المحلية قد بدت واضحة في هذا الشعر، ومن هؤلاء الأستاذ مصطفى صادق الرافعي الذي ذهب قائلاً :((وقد كان العرب ينشد بعضهم شعر بعض، ويجري كلٌ منهم في النطق على طبعه ومقتضى فطرته اللغوية، فمن ثَمَّ يقع الاختلاف الصرفي واللغوي الذي نراه في بعض الروايات، وقد يغير العربي فيما يتمثله من الشعر كلمة بأخرى يراها أليق بموضعها وأثبت في معناها، أو تكون الكلمة قد أصابت هوىً في نفسه))(١٣١) .

ويُقِرُّ الدكتور هاشم الطعّان بأن الشاعر الجاهلي كان – في مرحلة من مراحل صياغة الشعر – ينظم شعره بلهجة قبيلته التي لا تبعد كثيراً عن لهجات القبائل المجاورة ولا عن اللغة الأدبية العامة))(١٣٢).

وقد كان الدكتور غانم قدوري حمد أكثر إيضاحاً وإشارة إلى أن الشعر الجاهلي لم يخل من خصائص اللهجات المحلية إذ يقول : ((واختفاء آثار الخصائص اللغوية المحلية من الشعر الجاهلي لم يكن تاماً، فهناك بقايا منها تظهر في عدة مجالات، وتدلُّ تلك البقايا على أنَّ لغة الشعر الجاهلي لم تكن موحدة، أي أن لغة أدبية موحدة لم تكن موجودة أو بارزة في ذلك العصر))(١٣٣) .

هذان الاتجاهان هما أبرز ما ظهر عند الدارسين المحدثين حين شرعوا يبحثون في قضية علاقة الشعر الجاهلي بالخصائص اللغوية المحلية، ونحن – من أجل أن نقرر صلاحية الشعر الجاهلي لأن يكون مصدراً لدراسة العربية الجاهلية – لا بُدَّ أن نتعامل مع كلا الاتجاهين على أنهما فرضيتان غير مسلمٍ بأحدهما حتى تقوم الأدلة العلمية شاهدة لأحد هذين الاتجاهين فنقبله دون الآخر .

وقبل الشروع في البحث عن خصائص اللهجات المحلية في الشعر الجاهلي لا بُدَّ أن ننبه على قضية أساسية وهي أن أغلب الدارسين المحدثين الذين أنكروا وجود العناصر اللهجية في الشعر الجاهلي قصروا ميادين بحثهم على الدواوين الشعرية، والاقتصار على ذلك خطأٌ منهجي في نظري إذ ليس من همِّ الدواوين الشعرية ولا جامعيها العناية بإبراز الخصائص اللهجية في الشعر بل إن ذلك من اهتمام اللغويين والنحويين ولذا فإنَّ ميدان بحثي

عن الخصائص اللهجية المحلية في الشعر الجاهلي سيكون كتب النحاة واللغويين ابتداءً من سيبويه رغبة في تجاوز الخطأ المنهجي الذي وقع فيه عدد من الدارسين المحدثين .

المطلب الثاني

الخصائص اللهجية المحلية في الشعر الجاهلي

ليس من السهولة استقصاء البحث عن الخصائص اللهجية المحلية في الشعر الجاهلي من خلال دراسة موجزة مثل هذه، إذ إنَّ هذا الأمر به حاجة إلى مراجعة وبحث دقيقين في مراجع لغوية ونحوية متعددة، وليس بالإمكان إنجاز ذلك هنا الآن، ولذا سأكتفي بإثارة هذا الموضوع، وإلفات النظر إليه بعرض مجموعة صالحة من الظواهر اللغوية التي تضمنت شواهد شعرية جاهلية صيغت على وفق خصائص اللهجات المحلية، وذلك بمراجعة بعض المصادر اللغوية الأساسية التي ظهرت في أزمان مختلفة .

١- حكم المستثنى في الاستثناء المنقطع :

بيَّن سيبويه والنحويون من بعده أن للعرب مذهبين مشهورين مختلفين في كيفية التعامل مع المستثنى في الاستثناء المنقطع فأهل الحجاز ينصبونه، إذ إنه ليس من جنس ما قبله، أما بنو تميم فيبدلونه مما قبله، قال سيبويه في (هذا بابٌ يختار فيه النصب لأن الآخر ليس من نوع الأول) : ((وهو لغة أهل الحجاز، وذلك قولك : ما فيها أحدٌ إلا حماراً، جاءوا به على معنى ولكنَّ حماراً ... وأما بنو تميم فيقولون : لا أحد فيها إلا حمارٌ، أرادوا ليس فيها إلا حمارٌ، ولكنه ذكر أحداً توكيداً لأن يُعْلم أن ليس فيها آدميٌّ))(١٣٤) .

ثم بين سيبويه هذا الاختلاف اللهجي قد ظهر أثره في أثناء رواية بعض الشواهد الشعرية الجاهلية إذ يقول :

((وعلى هذا أنشدت بنو تميم قول النابغة الذبياني :

يا دارَ مَيَّةَ بالعلياء فالسَّنَدِ	**أقوت وطال عليها سالفُ الأبَدِ**
وقفت فيها أصيلاناً أسائلها	**عيَّت جواباً وما بالرَّبع من أحد**
إلّا أوارِيُّ لأياً ما أبَيِّنُها	**والنؤيُ كالحوضِ بالمظلومةِ الجلدِ**

وأهل الحجاز ينصبون))(١٣٥) .

أي :وأهلُ الحجازِ يقولون : إلا أُوارِيَّ لأياً ما أُبينها بنصب أوارِيَّ على أسلوبهم في نصب المستثنى في الاستثناء المنقطع .

وكذلكَ بيَّن سيبويه اختلاف الحجازيين والتميميين في رواية بيت النابغة، وهو قوله :

حلفتُ يميناً غيرَ ذي مثنويةٍ ولا علمَ إلا حُسْنَ ظنٍ بصاحب

إذ بيَّن أن أهل الحجاز ينصبون ((حُسْنَ))، أما بنو تميم فيرفعونه ((حُسْنُ))(١٣٦) .

٢- كسر عين ((نِعْم)) في لغة هُذيْل :

بيَّن سيبويه أنَّ الهذليين يكسرون عين ((نعم)) فيقولون : نِعِم، وروى شاهداً شعرياً جاهلياً صيغ على وفق هذه اللهجة، قال : ((وأما قول بعضهم في القراءة : ((إنَّ الله نِعِما يعظُكُم به)) فحرَّك العين فليس على لغة من قال نِعْمَ فأسكن العين، ولكنه على لغة من قال نِعِمَ فحرَّك العين، وحدَّثنا أبو الخطاب أنَّها لغة هُذيل

وكسروا كما قال لِعِب، وقال طرفة :

ما أقلَّت قدمٌ ناعلَها نِعِمَ الساعونَ في الحيِّ الشُّطُرْ))(١٣٧) .

٣- إضافة الاسم المقصور إلى ياء المتكلم :

أوضح أبو القاسم الزجاجي (ت ٣٣٧هـ) في كتابه (اللامات) أنَّ من العرب من يقلب ألف الاسم المقصور المضاف إلى ياء المتكلم ياءً ثمَّ يدغمها، وبيَّن أنَّ هذه الصفة اللهجية قد دخلت بعض الشعر الجاهلي، قال : ((ومن العرب من يقلب الألف ياءً فيدغم فيقول، هذا عَصَيَّ ورَحَيَّ، ومنه قول بعض الصحابة : وضعوا اللُّجَّ على قَفَيَّ . قال أبو ذؤيب :

سبقوا هَوَيَّ وأعنقوا لهواهُم ففقدتهم ولكلِّ جنبٍ مَصْرَعُ))(١٣٨) .

٤- اختلاف العرب في إبدال تاء الافتعال :

بيَّنَ أبو الفتح بن جني (ت ٣٩٢هـ) اختلاف العرب في رواية بيت الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى إذ كلٌّ يرويه بحسب ما تقتضيه قواعدُ لهجته، قال ابن جني : ((وأما قول زهير :

هو الجواد الذي يعطيك نائلَه عَفْواً ويُظْلَمُ أحياناً فيظَّلِمُ

فيُروى على ثلاثة أوجه : ((فيظَّلم، وفيظطلِمُ، وفيطَّلِمُ)) وأصله : ((يظتَلِمُ)) فمن قال : ((يظَّلِمُ)) أبدل الزائد للأصلي، كما قال تعالى : ((أن يصَّلِحا)) .

ومن قال : ((فيظْطَلِمُ)) – وهو الوجه – أبدل التاء طاءً، لأجل الظاء، كما قالوا : ((اظْطَهرَ بحاجته)) .

ومن قال : ((فَيطَّلِمُ)) أبدل الظاء طاءً، وأدغمها في الطاء لقُربها منها، وموافقتها إيَّاها في الاستعلاء والإطباق))(١٣٩) .

٥– التنوين الذي يلحق آخر القوافي :

بَيَّن ابن جني في أحد كتبه نوعاً من أنواع التنوين يلحق آخر القوافي متمماً للبناء ومكملاً له، والذي يبدو – من خلال طريقته في دراسة هذا الموضوع – أنَّ هذه الخاصَّة اللهجية المحلية هي لبعض العرب الذين ينشدون بعض الأشعار الجاهلية على وفق طريقتهم وقاعدتهم اللهجية هذه، قال ابن جني : ((والرابع من وجوه التنوين وهو أن يلحق القوافي معاقباً بما فيه من الغنة لحروف اللين وهو في ذلك على ضربين : أحدهما : أن يلحق متمماً للبناء وكمالاً له، والآخر أن يلحق زيادة بعد استيفاء البيت جميع أجزائه نيفاً من آخره بمنزلة الزيادة المسماة خزماً من أوله .

الأول من هذين نحو قول امرئ القيس في إنشاد كثير من بني تميم وقيس :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومَنْزِلَنْ ...))(١٤٠) .

٦– زيادة الباءِ بعد ((ما)) التميمية :

جاء في كتاب ((الجنى الداني في حروف المعاني)) للمرادي (ت ٧٤٩هـ) إشارة دقيقة إلى قضية لها صلة بموضوع العلاقة بين الشعر والخصائص اللهجية المحلية تكشف أنَّ نصوص العلماء تدعو للقول بأن الشعر صالح لاستيعاب الخصائص والظواهر اللغوية المحلية، يقول المرادي في هذا النص – متحدثاً عن مواضع زيادة الباء – : ((وزيادتها في الخبر ضربان : مقيسة وغير مقيسة، فالمقيسة في خبر ((ليس)) و ((ما)) أختها، نحو ((أليس الله بكافٍ عبدَه)) ((وما ربُّك بظلّام للعبيد)) وفي زيادتها بعد ((ما)) التميمية خلاف منعه الفارسي والزمخشري، والصحيح جوازه لسماعه في أشعار بني تميم))(١٤١) .

فنجد أنَّ المرادي يرجح صحة مجيء الباء زائدةً بعد ((ما)) التميمية لا لشيء سوى لورودها في أشعار بني تميم، وعلى الرغم من اختفاء الإشارة إلى زمن أشعار بني تميم هذه هل هي أشعار جاهلية أم غيرها لكن هذا الرأي يؤيد الفكرة القائلة بأن الشعر العربي يحمل في

طيَّاتِهِ خصائص اللهجات المحلية، وأنَّ فكرة خلوِّ هذا الشعر من هذه الخصائص فكرة زائفة لا تستند إلى دليل علميٍّ مقبول .

٧- **استعمال ((متى)) حرفَ جرٍّ :**

جاء في ((همع الهوامع في شرح جمع الجوامع)) لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) أنَّ لهجة هُذَيْل تستعمل ((متى)) حرف جرٍّ [١٤٢]، وقد جاء هذا الأسلوب اللهجي في شعر أحد الشعراء الهذليين وهو أبو ذؤيب الهذلي في قوله :

شَرِبْنَ بماءِ البحرِ ثمَّ ترفَّعتْ متى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نئيجُ

وهذا الأسلوب في رواية الشعر الجاهلي مُضَمَّناً بعض الخصائص اللهجية المحلية جاء في بعض مجاميع الشعر الجاهلي، ومثل ذلك :

٨- جاء في ((شرح القصائد التسع المشهورات)) عند الحديث عن قول عمرو بن كلثوم التغلبي :

وأيّامٍ لنا ولهم طِوالٍ عَصَيْنا المَلْكَ فيها أن ندينا

قول أبي جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) : ((عصينا المَلْكَ)) يعني : المَلِك، ويقال : إنها لغة ربيعة، وهذا عند سيبويه في الكسرة والضمة أن تُحْذفا يعني لِتَقَلِهما))(١٤٣) .

وهذا الذي عرضناه كلُّهُ لم يكن المراد منه استيعاب القضية وحصر الخصائص اللغوية المحلية في الشعر الجاهلي إذ إن هذا الأمر به حاجة إلى دراسة موسَّعة واستقصاء شامل للمراجع اللغوية والشعرية الكثيرة، ونرجو أن تتاح لنا أو لغيرنا من الباحثين في فرصة قادمة القيام بمثل هذا العمل العلمي المهمّ .

وبعد هذا العرض الموجز لمجموعة من آثار اللهجات العربية المختلفة في الشعر الجاهلي لو تساءلنا : هل يصلح الشعر الجاهلي مصدراً لدراسة العربية في العصر الجاهلي ولاسيما بعد أن استقرَّ في أذهاننا أن العربية كانت ذات طبيعة متنوعة يسودها اختلاف اللهجات وتباينها ؟

والجواب عن ذلك : نعم، يصلح أن يكون الشعر الجاهلي مصدراً لدراسة العربية في العصر الجاهلي إذ تبيَّن أنَّ هذا الشعر لم تتمَّ صياغته بلغة أدبية موحدة كما كان يعتقد عدد غير قليل من الدارسين المحدثين وفي ذلك إشارة إلى اختفاء هذه اللغة المشتركة الموحدة في

العصر الجاهلي، إذ إنّ بقايا العناصر اللغوية اللهجية المحلية في الشواهد الشعرية تؤيد قصة الاختفاء هذه .

ولكن بقي أن نشير إلى قضية نراها رئيسة هنا، وهي أنّ الاعتماد على الشعر الجاهلي مصدراً لدراسة العربية قبل الإسلام تواجهه بعض العقبات الرئيسة التي تحول دون الاعتماد على هذا الشعر اعتماداً كلياً، ويمكن إيجاز هذه العقبات بما يأتي :

١- أول دراسة لغوية وصلت إلينا كشفت بعض الخصائص اللهجية المحلية في الشعر الجاهلي كانت كتاب سيبويه، وهذا الكتاب ظهر في نهاية القرن الثاني للهجرة، ومن المحتمل أن تكون تلك الخصائص اللهجية المحلية التي ظهرت في شواهد سيبويه الشعرية الجاهلية كانت بسبب اللهجات القبلية التي عاصرها سيبويه وليست اللهجات القبلية التي عاشت في العصر الجاهلي، وهذا الاحتمال يضعّف فرصة الاعتماد على الشعر الجاهلي في تبيين صورة العربية في العصر الجاهلي .

٢- أدّى نشوء اللغة العربية المشتركة في القرن الرابع للهجرة - على وفق ما تذهب إليه بعض الدراسات الحديثة (١٤٤) - إلى رواية الشعر الجاهلي وتدوينه في القرون المتتابعة بهذه العربية المشتركة، وكان لهذا الحدث الأثر الكبير في اختفاء الكثير من آثار اللهجات القبلية في الشعر الجاهلي وقد اتضح هذا الأمر تمام الاتضاح في دواوين الشعراء والمجاميع الشعرية المختلفة التي لا تُعْنى بآثار اللهجات في الشعر أو بيان لغة الشاعر ولهجته التي قد تختلف عن غيره من الشعراء، ولم تظهر آثار اللهجات المختلفة في الشعر بصورة عامة والجاهلي على نحو خاص سوى ما جاء في الكتب اللغوية والنحوية - كما رأينا - لأن هذه الكتب من شأنها أن تُبيِّنَ تنوُّع اللهجات واختلافها وأثر ذلك في تقعيد الظواهر اللغوية .

إن هاتين العقبتين تضعان قضية مصدرية الشعر الجاهلي لدراسة واقع العربية وصورتها قبل الإسلام على المحكّ وتقلل من أهمية هذا الشعر في بيان طبيعة العربية إبّان تلك العصور، لذا ليس بعيداً القول : إنّ الشعر الجاهلي مصدر محدود ليس كثير الفائدة في دراسة العربية الجاهلية وليس مصدراً أساسياً يمكن الاعتماد عليه بصورة كلية في بيان تأريخ العربية في مرحلة ما قبل التدوين .

وأريد أن أقول شيئاً في نهاية هذا البحث وهو أنّه كانت لي رغبة ملحة في أن أدرس (الأمثال) ولغتها، وأتعرف قدرة هذه (الأمثال) على تصوير طبيعة الحياة اللغوية في

العصر الجاهلي، ولكن وقفت في طريقي عوائق وعقبات منعتني حتى الآن من محاولة الاستفادة من هذه (الأمثال) .

وأستطيع أن أوجز ما منعني من هذه الاستفادة على النحو الآتي : وهو أن التراث العربي لا يتيح للباحث معرفة الأمثال الجاهلية من غيرها، ومن يعد إلى كتب الأمثال المشهورة عندنا مثل (مجمع الأمثال) للميداني (ت ٥١٨هـ) يتبين له أن الأمثال العربية سردت سرداً واحداً من غير نظر إلى العصر الذي قيلت فيه وأنَّ القرائن التي تحمل المثل على عصر من العصور كانت ضعيفة ولا تجعل الباحث يستند إلى أساس علمي سليم في محاولة الكشف عن صورة العربية في العصر الجاهلي .

ولا يعني هذا أنَّ الأمثال الجاهلية غير موجودة بل هي موجودة وثابتة ولكنَّ كشفها أمرٌ فيه صعوبة بالغة، يقول الدكتور طه حسين : ((وأنا أرى معك أن طائفة غير قليلة من الأمثال يجب أن تكون جاهلية، ولكن تحقيق هذه الأمثال الجاهلية التي لم تستحدث في الإسلام ليس بالشيء اليسير))(١٤٥) .

فهذا هو المعوِّق الرئيس الذي صرفني عن محاولة الاستفادة من دراسة (الأمثال) ولغتها في هذا البحث حتى الآن، وأرجو أن تزيل الدراسات اللغوية التأريخية هذا العائق في قابل الأيام فتكشف لنا الأمثال الجاهلية من غيرها حتى نستطيع إخضاعها للدراسة والبحث والتدقيق حين نروم البحث عن صورة العربية الجاهلية أو غيرها في مختلف العصور .

خاتمة البحث ونتائجُهُ

أوضحت في بدء بحث هذا أني لا أرومُ فيه الكشف عن مصادر دراسة العربية في عصور طفولتها وتكونها فذلك أمر ليس بمقدرة البحث العلمي الرصين الوصول إليه والتعرف على طبيعة هذه العربية في مثل هذه العصور .

وقد كانت مهمة هذا البحث محاولة التعرف على مصادر العربية في العصر الذي سبق نزول القرآن الكريم وهو العصر الجاهلي الذي رأينا أنَّه يمكن أنأ يمتد إلى القرن الأول بعد الميلاد وهو القرن الذي ينتمي إليه أقدم النقوش الجاهلية التي تم العثور عليها ، ولقد تبين أنَّ أبرز النتائج التي خرجت بها هذه الدراسة، هي :

١- اتضح أنَّ صورة العربية في عصر ما قبلَ الإسلام وطبيعتها كانت تتسم باختلاف لهجات القبائل وتعدد مستويات الأداء اللغوية، وأن هذه اللهجات المختلفة المتباينة فيما بينها في كثير من الاستعمالات نفر غير قليل من الدارسين المحدثين .

ولقد رأينا أنّه يسهم في رسم هذه الصورة عن طبيعة العربية في عصر ما قبل الإسلام ما يمكن أن نستخلصه ونستنتجه من دراسة عدد من نصوص القدماء، يؤيدها بعض دراسات المحدثين والمعاصرين.

٢-وبعد أن اتضحت لنا هذه الصورة عن طبيعة العربية في عصر ما قبل الإسلام رحنا نبحث عن مصادر علمية تشهد أنّ العربية كانت كذلك في ذلك العصر الجاهلي، فعرضنا النقوش القديمة وروينا بعض نصوصها وقرأناها قراءة نقدية فألفيناها نصوصاً موجزة مختصرة لا تتحدث إلا عن أشياء مكررة محددة قليلة، أغلبها أعلام، لا تقدّم مادة وافرة علمية رصينة تنفع في بحث لغويٍّ رصين، لذا وجدنا عدداً من الدارسين المحدثين يعزف ويميل عن هذه النقوش، وأيدناهم في أن هذه النقوش لا تنفع لأن تكون مصدراً علمياً دقيقاً يبحث في حياة العربية الجاهلية أو ينفع في الكشف عن طبيعتها.

٣- ثم اتجهنا بعد ذلك إلى الشعر الجاهلي، وهو من اكثر المصادر المفترضة التي يمكن أن تكشف لنا عن واقع عربية العصر الجاهلي، ورأينا أن هذا الشعر ضم عدداً من الخصائص اللهجة المحلية التي أبانت عن اختلاف لهجات القبائل العربية في استعمال عدد غير قليل من الظواهر اللغوية المختلفة، فترجح عندي أن الشعر الجاهلي يصلح لأن يكون مصدراً لدراسة العربية في العصر الجاهلي .

ولكن وجدنا العقبات تضعف فرصة الاعتماد على هذا الشعر في دراسة عربية العصر الجاهلي وكان في مقدمتها : احتمال أن تكون اللهجات المحلية في هذا الشعر بسبب القبائل التي عاصرها النحاة واللغويون للقبائل التي عاشت في العصر الجاهلي، فضلاً عن أنّ نشأة العربية المشتركة في القرن الرابع للهجرة – كما ترى بعض الدراسات – وتدوين الشعر الجاهلي في القرون المتعاقبة بهذه العربية ساهم في اختفاء الكثير من مظاهر الاختلاف اللهجي في الشعر الجاهلي، كل ذلك أدّى إلى القول بأنّ الشعر الجاهلي يصلح أن يكون مصدراً محدوداً لدراسة العربية في عصر ما قبل الإسلام .

٤- النتيجتان السابقتان تدعوان إلى القول بأننا لا نمتلك مصادر علمية دقيقة قطعية لدراسة العربية في عصر ما قبل الإسلام، وإنما نمتلك مصدراً محدوداً هو الشعر الجاهلي يصلح – في حدودٍ معينة – لبيان طبيعة العربية في هذا العصر .

إنّ النتائج السابقة تبيّن افتقار العربية قبل مرحلة التدوين إلى ما يُعينُ على الكشف عن طبيعتها وصورتها وأساليبها وشيءٍ غير قليلٍ من قواعدها النحوية والصرفية والصوتية، وأنّها لا تملك مثل هذه المصادر إلا في مرحلة التدوين وهي مرحلة نزول القرآن

الكريم، وهذا يعني أنَّ البداية الحقيقية للتأريخ العلمي الدقيق المدَّون للعربية اقترنت بنزول القرآن الكريم، وأنَّ الذي يروم الكشف عن العربية وأساليبها وتراكيبها في أقدم مراحلها – التي جاءتنا عنها نصوص معتبرة – لا بدَّ أن يبدأ بعربية القرآن، بعد أن تبيَّن أن ليس للعربية تأريخ مدوَّن حقيقيٌّ وقطعيٌّ الثبوتِ قبل القرآن الكريم .

ونرجو أن يُيَسَّرَ لنا في قابل الأيام فرصة إثبات أنَّ تأريخ العربية الثابت الصحيح يبدأ مع النص القرآني الكريم، وأنَّ كلمة أحد الدارسين المحدثين كانت صادقة حين قال :

((لولا القرآن ما كانت عربية)) .

هوامش البحث

(١) كتاب سيبويه ١٢٥/٤ .

(٢) وهذا خلاف ما عليه اللغة العربية الموحدة التي اختارت بعد تكونها ترك الإمالة واستعاضت عنه بالنصب كما سماه سيبويه، وكما نجده الآن في عربيتنا الموحدة المشتركة.

(٣) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، لجلال الدين السيوطي ٤٦٠/١ .

(٤) الإبانة عن معاني القراءات ٤٢-٤٣ .

(٥) النشر في القراءات العشر ١/ ٢٢ .

(٦) الكتاب ٤٧٣/٤ .

(٧) المزهر ١/ ٢٢١

(٨) الفاضل ١١٣

(٩) مجالس ثعلب ١ / ٨٠ ـــ ٨١

(١٠) المزهر ٢١١/١

(١١) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ٣٣-٣٤ .

(١٢) المقدمة ٥٥٥ .

(١٣) سندرس هذه القضية بالتفصيل في المطلب الثاني إن شاء الله .

(١٤) اللغات السامية ٧٤ .

(١٦) في اللهجات العربية ٤٠.

(١٧) ينظر : في اللهجات العربية ٢٦،٤١،٤٣ ، واللغة بين القومية والعالمية " له " ٢٧٦ .

(١٨) محاضرات في اللغة ٦٦ .

(١٩) الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة ٢٤٣ .

(٢٠) ينظر : اللهجات العربية في التراث ١٠٥/١ .

(٢١) ينظر : اللهجات العربية في القراءات القرآنية ٤٨-٤٩ .

(٢٢) ينظر : اللغة العربية عبر القرون ٣٥ .

(٢٣) ينظر : فصول في فقه العربية ٧٨-٧٩ .

(٢٤) ينظر : الأصول ٧٨-٧٩، ٩٩ .

(٢٥) ينظر : في علم اللغة العام ٢٢٣-٢٢٤ .

(٢٦) ينظر : لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة ٥٦ .

(٢٧) ينظر : ملامح في تأريخ اللغة العربية ٥١-٥٣ ،

(٢٨) ينظر : فقه اللغة العربية ١١٥ .

(٢٩) ينظر : اللهجات العربية نشأة وتطوراً ٥٧ .

(٣٠) في الأدب الجاهلي ١٣٣ ،

(٣١) تأريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ١٣٤ ،

(٣٢) في الأدب الجاهلي ١١٧،١١٨ .

(٣٣) المعركة بين القديم والجديد ٣٧١ .

(٣٤) تكون العربية الفصحى (بحث في مجلة) ٦٩ .

(٣٥) الإبانة ٤٢ .

(٣٦) الخصائص ١٧/٢-١٨ .

(٣٧) الكتاب ٥٧،٥٩/١ .

(٣٨) المصدر نفسه ١٢٥/٤ .

(٣٩) المصدر نفسه ٣١٩/٢ .

(٤٠) المصدر نفسه ٣٢٠/٢-٣٢١ .

(٤١) المصدر نفسه ٣٢٢/٢-٣٢٣ .

(٤٢) العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ١٦٠ .

(٤٣) تأريخ اللغات السامية ١٦٩،١٧٠ .

(٤٤) المصدر نفسه / و /

(٤٥) ينظر : فقه العربية المقارن ، رمزي منير ٢٢ .

(٤٦) تأريخ اللغات السامية ١٧٠ .

(٤٧) ينظر : تأريخ اللغات السامية ١٧٧، ١٨٩ ؟
(٤٨) المصدر نفسه ١٧٧ .
(٤٩) ينظر : المصدر نفسه
(٥٠) ينظر : تأريخ العرب قبل الإسلام ١٩٠/٧ .
(٥١) ينظر : المصدر نفسه ١٩٠/٧ .
(٥٢) المصدر نفسه ١٩٠/٧ – ١٩١ .
(٥٣) المصدر نفسه ١٩٩/٧ .
(٥٤) المصدر نفسه.
(٥٥) ينظر : المصدر نفسه ٢٠٠/٧ .
(٥٦) ينظر : المصدر نفسه .
(٥٧) المصدر نفسه .
(٥٨) ينظر : المصدر نفسه .
(٥٩) تأريخ اللغات السامية ١٨١ .
(٦٠) ينظر : المصدر نفسه ١٨٢ .
(٦١) ينظر : حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، الدكتور أحمد سوسة ٢٠٣، ٢٠٤ .
(٦٢) المصدر نفسه ٢٠٥-٢٠٦ .
(٦٣) ينظر : تأريخ اللغات السامية ١٨٣ .
(٦٤) ينظر : حضارة العرب ٢٠٦ .
(٦٥) ينظر : تأريخ اللغات السامية ١٨٣ .
(٦٦) ينظر : تأريخ العرب ٢٤٢/٧ .
(٦٧) ينظر : المصدر نفسه ٢٤٣/٧ .
(٦٨) ينظر : فصول في فقه العربية، الدكتور رمضان عبد التواب ٥٣ .
(٦٩) ينظر : تأريخ اللغات السامية ١٨٣-١٨٤ .
(٧٠) ينظر : اللغات السامية ٧٢ .
(٧١) ينظر : المصدر نفسه .
(٧٢) ينظر : تأريخ اللغات السامية ١٨٨ .

(٧٣) يقصد موضوعات هذه النقوش التي تنحصر في : أمور شخصية كبيان ملكيـــة وتعيـــين قبر، أو في رجاء وتوسل، أو تسجيل خاطر ...إلخ .

(٧٤) تأريخ العرب ٢٢٦/٧ .

(٧٥) ينظر : تأريخ اللغات السامية ١٨٩ .

(٧٦) ينظر : المصدر نفسه ١٧٧ .

(٧٧) المصدر نفسه .

(٧٨) تأريخ العرب ١٤٤/٧ .

(٧٩) المصدر نفسه ١٨٠/٧ .

(٨٠) تأريخ اللغات السامية ١٨٩ .

(٨١) ينظر : تأريخ العرب ١٤٤/٧ .

(٨٢) ينظر : المصدر نفسه ١٨٠/٧- ١٨١ .

(٨٣) المصدر نفسه ١٨١/٧ .

(٨٤) ينظر : تأريخ اللغات السامية ١٨٩ .

(٨٥) ينظر : تأريخ العرب ٢٧٣/٧ .

(٨٦) المصدر نفسه ١٧٣/٧، وفصول في فقه العربية ٥٥ .

(٨٧) فصول في فقه العربية ٥٦ .

(٨٨) ينظر : تأريخ العرب ٢٧٣/٧ .

(٨٩) تأريخ اللغات السامية ١٩٣ .

(٩٠) المصدر نفسه.

(٩١) تأريخ العرب ٢٧٣/٧ .

(٩٢) تأريخ اللغات السامية ١٩٣ .

(٩٣) ينظر : المعجم المفصل في فقه اللغة، مشتاق عباس معن ١٩٠ .

(٩٤) ينظر : تأريخ اللغات السامية ١٩١ .

(٩٥) ينظر : فصول في فقه العربية ٥٦ .

(٩٦) ينظر : تأريخ اللغات السامية ١٩١ .

(٩٧) فصول في فقه العربية ٥٧ .

(٩٨) ينظر : اللغات السامية ٧٣-٧٤ ، وتأريخ اللغات السامية ١٩١ .

(٩٩) تأريخ العرب ٢٧٩/٧ .

(١٠٠) ينظر : فصول في فقه العربية ٥٨ .

(١٠١) ينظر : المعجم المفصل في فقه اللغة ١٨٨ .

(١٠٢) ينظر : فصول في فقه العربية ٥٨، والمعجم المفصل في فقه اللغة ١٨٨ .

(١٠٣) ينظر : فصول في فقه العربية ٥٨ .

(١٠٤) فصول في فقه العربية ٥٨ .

(١٠٥) المصدر نفسه .

(١٠٦) ينظر : اللغات السامية ٧٣-٧٤ .

(١٠٧) ينظر : تأريخ اللغات السامية ١٩٢ .

(١٠٨) ينظر : فصول في فقه العربية ٥٧، والمعجم المفصل في فقه اللغة ١٨٩ .

(١٠٩) تأريخ العرب ٦٧/٧ .

(١١٠) ينظر : تأريخ العرب٧/٢٨٠، وفصول في فقه العربية ٥٧ .

(١١١) فصول في فقه العربية ٥٧ .

(١١٢) ينظر : تأريخ اللغات السامية ١٩٢، وتأريخ العرب ٢٧٩/٧ .

(١١٣) ينظر : تأريخ العرب ٢٧٩/٧.

(١١٤) ينظر : المصدر نفسه .

(١١٥) فقه اللغة ٩٩ .

(١١٦) في اللهجات العربية ٣٥ .

(١١٧) لغات النقوش العربية الشمالية وصلتها باللغة العربية (بحث ضمن مجموعة البحوث والمحاضرات الخاصة بمجمع اللغة العربية في القاهرة) ١٨٠ .

(١١٨) في اللهجات العربية ٣٤ .

(١١٩) المصدر نفسه ٣٦ .

(١٢٠) الانتصار لسيبويه على المبرد ٥٥ .

(١٢١) يتحدث عن قصيدة عقبة الأسدي، التي اشهد سيبويه منها بقول الشاعر :

معاوي إننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديدا

ينظر : كتاب سيبويه ٦٧/١ .

(١٢٢) تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب ٨٨ .

(١٢٣) المزهر ٢٦١/١ .

(١٢٤) اللغات السامية ٧٤-٧٥ .

(١٢٥) يلاحظ هنا قضية أساسية وهي أن الدكتور طه حسين يرى أن صياغة الشعر الجاهلي بلغة موحدة تمّت بعد الإسلام في حين أن الآخرين ممن ذهبوا هذا المذهب رأوا أنّ هذه الصياغة حدثت قبل الإسلام في العصر الجاهلي، وكلاهما يرى أنّ الشعر الجاهلي وصل إلينا مصاغاً بلغة أدبية موحدة .

(١٢٦) في الأدب الجاهلي ١١٧-١١٨ .

(١٢٧) في الأدب الجاهلي ١١٨ .

(١٢٨) المصدر نفسه .

(١٢٩) في اللهجات العربية ٤٣ .

(١٣٠) لهجت تميم ٩٥ .

(١٣١) تأريخ آداب العرب ٣٨٨/١ .

(١٣٢) الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة ٢٤١ .

(١٣٣) تكون العربية الفصحى ٥٤ .

(١٣٤) الكتاب ٣١٩/٢ .

(١٣٥) المصدر نفسه ٣٢٠/٢-٣٢١ .

(١٣٦) ينظر : المصدر نفسه ٣٢٢/٢ – ٣٢٣ .

(١٣٧) المصدر نفسه٤٣٩/٤-٤٤٠ .

(١٣٨) اللامات ٩٦ .

(١٣٩) المنصف شرح تصريف المازني ٣٢٩/٢ .

(١٤٠) سر صناعة الإعراب ٥٠١/٢ .

(١٤١) الجنى الداني في حروف المعاني ١١٥ .

(١٤٢) همع الهوامع ٣٧٥/٢ .

(١٤٣) شرح القصائد التسع المشهورات ٦٢٩/٢-٦٣٠ .

(١٤٤) ينظر : العربية ١٦٠ .

(١٤٥) في الأدب الجاهلي ٤١٨ .

مصادر البحث

- الإبانة عن معاني القراءات، للإمام مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧ هـ)، تحقيق الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، مطبعة نهضة مصر – القاهرة، د.ت .

_ الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة، الدكتور هاشم الطعان، دار الحرية للطباعة _ بغداد ١٩٧٨م .
_ الأُصول دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، الدكتور تمام حسان، ط (١) دار الثقافة الدار البيضاء _ المغرب ١٤٠١هـ _ ١٩٨١م .
_الانتصار لسيبويه على المبرد، لأبي العباس أحمد بن محمد بن ولاد التميمي (ت٣٣٢هـ) دراسة وتحقيق: الدكتور زهير عبد المحسن سلطان، ط (١) مؤسسة الرسالة _ بيروت ١٤١٦هـ _ ١٩٩٦م
_ تأريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، تصحيح وتحقيق: محمد سعيد العريان، ط (٢) مطبعة الاستقامة _ مصر،١٣٥٩هـ _ ١٩٤٠م .
_ تأريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، الجزء الأول، ترجمة: الدكتور عبد الحليم النجار ط(٤)، دار المعارف _ مصر ١٩٧٧م .
_ تأريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، الدكتور شوقي ضيف ط (١٠) دار المعارف _ مصر ١٩٨٢م .
– تأريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي، ط (١) مطبعة المجمع العلمي العراقي – بغداد ١٩٥٧ .
– تأريخ اللغات السامية، إسرائيل ولفينسون، ط (١) دار القلم – بيروت ١٩٨٠ .
_ تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب، لأبي الحجاج يوسف ابن سليمان المعروف بالأعلم الشَّنْتَمريّ (ت٤٧٦هـ)، حققه وعلق عليه: الدكتور زهير عبد المحسن سلطان، ط (١) دار الشؤون الثقافية العامة _ بغداد ١٩٩٢م .
_ تكوُّن العربية الفصحى، الدكتور غانم قدوري الحمد، مجلة مجمع اللغة العربية الأردنيّ العدد(٤٨)، السنة (١٩) ١٤١٥هـ _ ١٩٩٥م .
– الجنى الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ)، تحقيق : طه محسن، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر – جامعة الموصل ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م.
– حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، الدكتور أحمد سوسة، وزارة الإعلام العراقية ١٩٧٩م
_ الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ) تحقيق: محمد علي النجار، ط (٤) دار الشؤون الثقافية العامة _ بغداد ١٩٩٠م .
– سر صناعة الإعراب، لأبي عثمان بن جني

- شرح القصائد التسع المشهورات، لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق : أحمد خطاب عمر، وزارة الإعلام العراقية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
_ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، لأحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: السيد احمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي _ القاهرة _ ١٩٧٧م .
_ العربيّة دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، يوهان فك، ترجمة: الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ١٤٠٠هـ _ ١٩٨٠م .
_ الفاضل، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق: عبد العزيز الميمني، ط (١) دار الكتب المصرية _ القاهرة ١٣٧٥هـ _ ١٩٥٦م .
_ فصول في فقه العربية، الدكتور رمضان عبد التواب، ط(٣) مكتبة الخانجي _ القاهرة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م .
- فقه العربية المقارن، رمزي منير بعلبكي، ط(١) دار العلم للملايين ١٩٩٩م .
_ فقه اللغة، الدكتور علي عبد الواحد وافي، ط (٣)، مطبعة لجنة البيان العربي _ القاهرة _١٣٦٩هـ _ ١٩٥٠م .
_ فقه اللغة العربية، الدكتور كاصد ياسر الزيدي، مديرية دار الكتب _ الموصل ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م .
_ في الأدب الجاهلي، الدكتور طه حسين، دار المعارف - مصر .
_ في علم اللغة العام،الدكتور عبد الصبور شاهين،مكتبة الشباب _القاهرة ١٩٨٤ .
_في اللهجات العربيّة، الدكتور إبراهيم أنيس، ط (٤) مكتبة الأنجلو المصرية _ مصر ١٩٧٣م
_ كتاب سيبويه، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ)، تحقيق وشرح :عبد السلام محمد هارون،ط (٣) مكتبة الخانجي _ القاهرة ١٤٠٨هـ _ ١٩٨٨م .
- اللامات، لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت ٣٣٧هـ)، تحقيق : الدكتور مازن المبارك، المطبعة الهاشمية - دمشق ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .
- لغات النقوش العربية الشمالية وصلتها باللغة العربية، الدكتور مراد كامل، (ضمن بحوث ومحاضرات مجمع اللغة العربية في القاهرة في مؤتمر عام ١٩٦١م - ١٩٦٢م)، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية - القاهرة ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م .
_اللغات السامية، تيودور نولدكه، ترجمة: الدكتور رمضان عبد التواب، المطبعة الكمالية _ مصر ١٩٦٣م .

_ الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة، الدكتور هاشم الطعان، دار الحرية للطباعة _ بغداد ١٩٧٨م .
_ الأُصول دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، الدكتور تمام حسان، ط (١) دار الثقافة الدار البيضاء _ المغرب ١٤٠١هـ _ ١٩٨١م .
_الانتصار لسيبويه على المبرد، لأبي العباس أحمد بن محمد بن ولاد التميمي (ت٣٣٢هـ) دراسة وتحقيق: الدكتور زهير عبد المحسن سلطان، ط (١) مؤسسة الرسالة _ بيروت ١٤١٦هـ _ ١٩٩٦م
_ تأريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، تصحيح وتحقيق: محمد سعيد العريان، ط (٢) مطبعة الاستقامة _ مصر،١٣٥٩هـ _ ١٩٤٠م .
_ تأريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، الجزء الأول، ترجمة: الدكتور عبد الحليم النجار ط(٤)، دار المعارف _ مصر ١٩٧٧م .
_ تأريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، الدكتور شوقي ضيف ط (١٠) دار المعارف _ مصر ١٩٨٢م .
– تأريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي، ط (١) مطبعة المجمع العلمي العراقي – بغداد ١٩٥٧ .
– تأريخ اللغات السامية، إسرائيل ولفينسون، ط (١) دار القلم – بيروت ١٩٨٠ .
_ تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب، لأبي الحجاج يوسف ابن سليمان المعروف بالأعلم الشَنْتَمريّ (ت٤٧٦هـ)، حققه وعلق عليه: الدكتور زهير عبد المحسن سلطان، ط (١) دار الشؤون الثقافية العامة _ بغداد ١٩٩٢م .
_ تكوُّن العربية الفصحى، الدكتور غانم قدوري الحمد، مجلة مجمع اللغة العربية الأردنيّ العدد(٤٨)، السنة (١٩) ١٤١٥هـ _ ١٩٩٥م .
– الجنى الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ)، تحقيق : طه محسن، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر – جامعة الموصل ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م.
– حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، الدكتور أحمد سوسة، وزارة الإعلام العراقية ١٩٧٩م
_ الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ) تحقيق: محمد علي النجار، ط (٤) دار الشؤون الثقافية العامة _ بغداد ١٩٩٠م .
– سر صناعة الإعراب، لأبي عثمان بن جني

- شرح القصائد التسع المشهورات، لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق : أحمد خطاب عمر، وزارة الإعلام العراقية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
_ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، لأحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: السيد احمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي _ القاهرة _ ١٩٧٧م .
_ العربيّة دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، يوهان فك، ترجمة: الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ١٤٠٠هـ _ ١٩٨٠م .
_ الفاضل، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق: عبد العزيز الميمني، ط (١) دار الكتب المصرية _ القاهرة ١٣٧٥هـ _ ١٩٥٦م .
_ فصول في فقه العربية، الدكتور رمضان عبد التواب، ط(٣) مكتبة الخانجي _ القاهرة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م .
- فقه العربية المقارن، رمزي منير بعلبكي، ط(١) دار العلم للملايين ١٩٩٩م .
_ فقه اللغة، الدكتور علي عبد الواحد وافي، ط (٣)، مطبعة لجنة البيان العربي _ القاهرة _١٣٦٩هـ _ ١٩٥٠م .
_ فقه اللغة العربية، الدكتور كاصد ياسر الزيدي، مديرية دار الكتب _ الموصل ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م .
_ في الأدب الجاهلي، الدكتور طه حسين، دار المعارف - مصر .
_ في علم اللغة العام،الدكتور عبد الصبور شاهين،مكتبة الشباب _القاهرة ١٩٨٤ .
_في اللهجات العربيّة، الدكتور إبراهيم أنيس، ط (٤) مكتبة الأنجلو المصرية _ مصر ١٩٧٣م
_ كتاب سيبويه، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ)، تحقيق وشرح :عبد السلام محمد هارون،ط (٣) مكتبة الخانجي _ القاهرة ١٤٠٨هـ _ ١٩٨٨م .
- اللامات، لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت ٣٣٧هـ)، تحقيق : الدكتور مازن المبارك، المطبعة الهاشمية - دمشق ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .
- لغات النقوش العربية الشمالية وصلتها باللغة العربية، الدكتور مراد كامل، (ضمن بحوث ومحاضرات مجمع اللغة العربية في القاهرة في مؤتمر عام ١٩٦١م - ١٩٦٢م)، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية - القاهرة ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م .
_اللغات السامية، تيودور نولدكه، ترجمة: الدكتور رمضان عبد التواب، المطبعة الكمالية _ مصر ١٩٦٣م .

لعربية عبر القرون، الدكتور محمود حجازي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر _ القاهرة ١٩٦٨م .
_ اللهجات العربية في التراث، الدكتور أحمد علم الدين الجندي، الدار العربية للكتاب، ليبيا _ تونس ١٣٩٨هـ _ ١٩٧٨م .
_ اللهجات العربية في القراءات القرآنية، الدكتور عبده الراجحي، دار المعارف _ مصر ١٩٦٨م
_ اللهجات العربية نشأةً وتطوراً، الدكتور عبد الغفار حامد هلال، دار الفكر العربي _ القاهرة ١٤١٨هـ _ ١٩٩٨م .
_ لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، غالب فاضل المطلبي دار الحرية للطباعة _ بغداد ١٩٧٨م
_ مجالس ثعلب، لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ت٢٩١هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف _ مصر، ج١ ١٩٤٨م، ج٢ ١٩٤٩م .
– محاضرات في علوم القرآن، الدكتور غانم قدوري الحمد، ط (١) دار عمار – عمان / الأردن ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م .
_ محاضرات في اللغة، الدكتور عبد الرحمن أيوب، مطبعة المعارف _ بغداد ١٩٦٦م .
_ المزهر في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد احمد جاد المولى وزميليه، دار الفكر _ بيروت .
_ المعجم المفصل في فقه اللغة، مشتاق عباس معن، ط (١) دار الكتب العلمية _ بيروت ١٤٢٢هـ _ ٢٠٠١م .
_ المعركة بين القديم والجديد، مصطفى صادق الرافعي، ضبط وتصحيح: محمد سعيد العريان، ط (٣) مطبعة الاستقامة مصر ١٣٧٢هـ _ ١٩٥٣م .
_ مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت٨٠٨هـ) ط (٧) دار القلم _ بيروت ١٤٠٩هـ _ ١٩٨٩م .
– ملامح من تأريخ اللغة العربية، الدكتور أحمد نصيف الجنابي، دار الخلود للطباعة – بغداد ١٩٨١ م
– المنصف شرح تصريف المازني، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق : إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، ط(١) شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي – مصر ١٣٧٣هـ – ١٩٥٤م .

- النشر في القراءات العشر، للحافظ أبي الخير محمد بن محمد الشهير بـابن الجـزري (ت ٨٣٣هـ)، طبع بإشراف علي محمد الضباع، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت، د.ت .

_ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، لجلال الدين السيوطي،تحقيق :أحمد شـمس الـدين ، ط(١) دار الكتب العلمية _ بيروت ١٤١٨هـ _ ١٩٩٨م .